بحاشية الفذلكوني

+

نطفة في رحم بارد

(المجموعة الفائزة بجائزة المواهب من
المجلس الأعلى للثقافة 2012 دورة إبراهيم أصلان)

قصص قصيرة

إيهاب عبد الدايم عبد المالك

الغلاف تصميم وتنفيذ

إيهاب عبد الدايم عبد المالك

الفهرس

1. لامبولينا 2

2. بحاشية الفذلكوني 9
3. الغارقون في مية البطيخ 18
4. عندما استجملت الناقة 25
5. الدور الـ 17 معاك 28
6. الوحدة 34
7. الرجل الأبيض ذو الأصابع الزرقاء 38
8. ضاقت فلما استحكمت حلقاتها 48
9. نطفة في رحم بارد 50
10. أسطورة برج هانوي 54
11. الرجل الذي فقد ربع جنيه مخروم وما يزال يبحث عنه حتى الآن 56
12. شعبطة 61
13. متوالية هندسية 67
14. ضفدعة لم تبلغ الحلم 70
15. مديرة لوفتهانزا 74
16. ورأيت الوجه المظلم للقمر 77
17. إبرو 78
18. لما عايز تروح فيصل، أيه نزلك محطة فيصل؟! 80
19. ابتسامة محنية الظهر 83
20. بلا ظل 87
21. خالى حسنين اللي في مصر 90

لامبولينا

أعتى الرجال في حارتنا لا يقوى على أن يرفع طرفه في عين لامبولينا، فتذل رقابهم له من أول نظرة. أجمل النساء في حارتنا لا يقدرن على مقاومة سحر لامبولينا، فتخضع له قلوبهن وأجسادهن من أول لمسة. ضعفاء حارتنا يستأنسون دوما بلامبولينا، فتنزاح الهموم عن قلوبهم عند سماعهم لأول خطوة. هذا على الرغم من أن لامبولينا كان مبتور الساقين، مسمول العينين، بلا ذَكَر. وعلى الحائط المهدم للخرابة القديمة الجاثمة على مؤخرة حارتنا مكتوب عبارة "هنا يرقد لامبولينا" وأسفلها عبارة "دا الحديد بُولي وإحنا لامبولينا".

والحقيقة أن "لامبولينا" ليس الاسم الحقيقي لـ"لامبولينا"، بل اسمه الحقيقي "حسن". وقد ظل "حسن" "حسنا" لفترة طويلة من الزمن. ويعود اسمه الجديد إلى بيت عنترة الشهير "خلقت من الحديد أشد بأسا، وقد بُلي الحديد وما بُليت". طبعا لم يكن لحسن علما بعنترة ولا بشعره، حتى شاهد – أو بالأحرى سمع- شخصية حزلئوم في الفيلم الشهير. وعندما تحركت شهوته لسماع صوت "زوجة أبي علي" – ذات العشرين ربيعا- انطلق متعقبا أياها وهو يردد " دا الحديد بولي وإحنا لامبولينا"، وبدلا من أن تأخذ الحمية والغيرة قلب "أبي علي" – ذي الستين خريفا- وهو يرى لامبولينا يتحرش بزوجته أمام الجميع، أطلق "أبو علي" ضحكة عالية ساخرا من لامبولينا وهو يقول "شوف الواد يدوب بلغ من هنا وعامل نفسه راجل وبيعاكس الستات".

ظل حسن يردد تلك العبارة وهو يطارد جميع الأمهات في الشارع جيئة وذهابا خاتما بها سيل الغزل العفيف وغير العفيف، وعندها كان جميع الأبهات يطلقون ضحكاتهم العالية الساخرة على لامبولينا. ورغم ترداد "لامبولينا" لتلك العبارة إلا أنه ظل "حسن" لفترة طويلة إلى أن كتب خالد (ابن أم خالد وأبو خالد) – تمييزا له عن خالد (ابن أم أشرف وأبو سمير) - على حائط الخرابة القديمة العبارتين السابقتين. وحينها صار "لامبولينا" علما، ليس فقط على "حسن" بل صارت الحارة اسمها "حارة لامبولينا" والخرابة "خرابة لامبولينا" ومن وقتها بدأ "عهد لامبولينا" في حارتنا.

والحقيقة كان لامبولينا هو أتفه سكان حارتنا – لو اعتبرنا وجوده داخل الخرابة يجعله معدودا من السكان. فكان الرجال لا يأبهون له، والنساء يستبشعن خلقته. حتى حدث ما حدث. بعدها تحول لامبولينا إلى شخص آخر. وبعدها صار نشاطه هو أنه في كل صباح يستيقظ من مرقده داخل

الخرابة، ويلف عينيه حول رقبته، ويضع ساقيه على فخذيه، ثم يتناول قضيبه بين أسنانه ثم يمشي على يديه حتى يقف كالأسد على رأس الحارة فيظل يشاكس النساء والرجال طوال يومه. وفي نهاية اليوم غالبا ما يظفر بليلة سوداء داخل الخرابة المظلمة مع إحدى جميلات الحارة أو الحارات المجاورة.

ولكي نعرف حكاية هذا الملعون فعلينا بالعودة لعدة أعوام خلت. عاش والدا "حسن" القرويان في حارتنا منذ قدومهما إلى القاهرة في حجرة ضيقة في المنزل المجاور للخرابة. لم يرزقهما الله سواه. و"سواه" هنا ليست استثناءً من الأبناء فقط بل من كل متع الدنيا. حمله أبوه بين ذراعيه وهو يكاد يطير من الفرحة، وطاف به على كافة منازل الحارة، بل وامتد الطواف حتى شمل بعض المعارف في الشارع الرئيسي، بل وبعض الشوارع والحواري المجاورة. وعندما هده التعب جلس على المقهي في مدخل الحارة، واضعا "لامبولينا" على الطقطوقة أمامه رغم تذمر المعلم "شعبان" (صاحب المقهى وأخو أبو خالد). لم يبال "أبو لامبولينا" بتعليقات "شعبان" ولا بطقطوقته، فقد كان مشغول البال بمسألة مصيرية. فأخذ يردد سؤالا واحدا لعدة أيام – ظل خلالها "لامبولينا" على الطقطوقة- كيف سيختن "لامبولينا"؟

أجابه البعض في صوت واحد ردد صداه البعض الآخر: "حسنين المزيّن". كان اعتراض أبوه على "حسنين المزيّن" منطقيا إلى حد كبير. ففي العام الماضي ظل "ابن طلعت" البقال ينزف حتى الموت بعد عملية ختان فاشلة. وفي العام قبل الماضي أصابت الغنغرينا "ابن محروس" في مقتل بعد أن ختنه "حسنين" بأدواته الملوثة، وفضّل محروس فقد ولده على أن يفقد ولده أعز ما يملك. وفي العام قبل قبل الماضي اكتشفوا إصابة "الحاج أبي خالد" – تمييزا له عن "أبي خالد" الذي لم يحج- بالفيروس الكبدي- ورغم تأكيد الطبيب أن العدوى قد انتقلت غالبا من أدوات الحلاقة الملوثة إلا أن "الحاج أبا خالد" لم يتخل عن "حسنين"، وكذلك باقي أفراد الحارة. ورغم تطمينات جميع أفراد الحارة، إلا أن "أبا حسن" قرر أن يجري عملية الختان – في سابقة غير مسبوقة- على يديّ جراح كبير.

– دكتور "هاني" بعد ما رجع من بعثة أمريكا ما عبّرش أبوه ولا أمه لحد ما ماتوا، تفتكر ممكن يعمل عملية لابنك ببلاش عشان خاطر الجيرة القديمة؟

ورغم المنطق الواضح لهذه المسألة، إلا أن الخوف على "حسن" محا كل مساحات المنطق من عقل أبيه وذهب إلى الدكتور هاني في عقر عيادته. وبينما زاغت قدميّ ""أبي حسن" وهو يقف منتظرا قضاء "الدكتور هاني"، زاغت عينا "الدكتور" وهو يردد بصوت ضال مضلّ:

- بكرة هي الفرصة الوحيدة.

وبعدها انصرف من أمامه بقامته الفارعة زائغ الأقدام والعيون دون أن ينتظر ردا منه. تلفت "أبو حسن" حوله متابعا الزحام الشديد – من علية القوم- في العيادة، فعلم أن لا فرصة أمام ولده اليوم، وليس أمامه سوى الانتظار للغد.

عندما حل الغد دخل حاملا ولده بين كفيه وهو يتلفت حوله متأملا العيادة الخاوية على عروشها. وظل وهو في انتظار انتهاء الطبيب من الجراحة يتلفت حوله متعجبا من تغير حال العيادة من الأمس إلى اليوم. وفجأة اندفع "الدكتور" مهرولا خارجا من حجرة العمليات ويداه ملطختان بالدماء وهو يرتدي جاكتته بعجالة في طريقه للخروج من العيادة. تعلق "أبو حسن" بأستار الجاكتة مستفسرا عن ولده. لم يتلق أية إجابة، فقط عدة صفعات غاضبة متتالية نزلت على خديه وقفاه وكان ختامها لكمة قوية في الفك. تردد وهو ينهض مترنحا بين اللحاق بالدكتور والاطمئنان على ولده، وعندما اندفع في النهاية إلى داخل حجرة العمليات انطلقت منه صرخة ملتاعة وقد وجد الدماء تلطخ كافة أرجاء الحجرة بينما يحاول مساعد الدكتور - يائسا- إيقاف النزيف الذي انفجر من منتصف "لامبولينا". احتضن "أبو لامبولينا" رأس "لامبولينا" المغمضة العينان إطمئنانا تحت تأثير المخدر. بينما انفجرت الدموع من بين عينيه والصرخات من بين شفتيه أغزر من الدماء من بين أعضاء ولده عندما مد "المساعد" يده إليه وأبصر الوالد الرأس الذاوية الدامية تطل من بين أصابع المساعد.

أحاط بأبي "لامبولينا" أهل الحارة في مجلسه على المقهي ممسكا بين أصابعه بالرأس بينما وضع "لامبولينا" على الطقطوقة أمامه غير مبال باعتراضات المعلم "شعبان". أخذ "أبو لامبولينا" يقسم بجميع الأيمان التي يحفظها والتي اخترعها وقتئذٍ بأنه سيقتلع رأس الدكتور كما اجتث أهم رأسٍ في جسد ولده، ولم يوقفه عن الاستقسام بالأزلام إلا الجريدة اليومية التي دفع بها تحت عينيه "حسنين المزين"، والتي تصدّر صفحتها الأولى مانشيت يقول **"جراح شهير يقتل زوجته الأمريكية وعشيقها في عش الزوجية"** وأسفل العنوان صورة قديمة يظهر فيها الدكتور والسعادة تطفر من

عينيه وإلى جواره زوجته الأمريكية زائغة العينين. وقتها سالت الدموع الثخينة من بين عينيه وحمل لامبولينا بين كفيه والرأس بين أصابعه وتوجه إلى الخرابة ودفن الرأس، وهكذا أصبح "لامبولينا" الطفل رجلا بلا رأس.

ورغم مرور الأيام إلا أن هذا الحادث ظل يقض مضجع "أبو لامبولينا" وينغص عليه حياته. وكلما كبر "لامبولينا" واقترب من مرحلة البلوغ اشتدت آلام والده حتى أقعده الحزن والمرض. واضطر لامبولينا لترك المدرسة نظرا لضيق ذات اليد وذات العيش. ذهب لامبولينا للعمل كتبّاع مع الأسطى أشرف على ميكروباصه العتيق مُخلَّع الأبواب. ورغم كل ما لاقاه "لامبولينا" على يدي الأسطى "أشرف" إلا أنه لم يشأ أن يزيد أحزان والده فأخفى عنه كل ما يلقاه من سوء معاملة، إلا أن الحادث الأخير بلغ والده رغما عنه. فليس من السهل إخفاء بتر قدميك عن أقرب الناس إليك. طار الخبر إلى "أبو لامبولينا" على جناحي "سعيد" بن "حسنين المزين" فانطلق من فوره إلى المستشفى العام، وعندما وصل إلى هناك وجد ابنه مقسوما إلى ثلاثة أجزاء، جسد وساقين. أما الأسطى "أشرف" فقد وقف مترنحا أمام ضابط التحقيق:

- والله يا بيه كان ماشي جنبي، فجأة لقيته رمى يمين عليا، يبقى أنا الغلطان إزاي؟ والا عشان هوه باشا وغني هيطلع منها والبسها أنا؟
- يا ابن المسطولة! ما شفتش الإشارة الحمرا وقلنا ماشي، لكن مش حاسس أنك لبست في التروماي.
- الله! هوه كان تروماي ولاّ مرشيدس؟!

لسوء حظ "لامبولينا" أنما صدمه الأسطى أشرف لم يكن مرسيدس، وعند الاصطدام اندفع "لامبولينا" أسفل عجلات الوحش المعدني الذي التهم ساقيه في قضمة واحدة، تاركا له فتات جسده لتقتات عليه الأيام.

تحامل الوالد على نفسه وأصر على أن يدفن ساقيّ ولده بيديه، وأخذ ينبش قبريهما في الخرابة القديمة إلى جوار الرأس. وعندما انتهى من عملية الدفن سقط ميتا على القبر النصفي لولده.

بالطبع لم يكن في الإمكان تنفيذ وصية الوالد بدفنه إلى جوار أشلاء ولده. وبما أن صلته الغامضة بقريته مقطوعة – كرأس ولده- منذ زمنٍ، فقد تم دفنه في أحد مقابر الصدقة القريبة من الحارة. لم

يستطع "لامبولينا" أن يصدق لفترة من الزمن أن والده قد ذهب بلا رجعة، لكنه أُجبر على التصديق عندما جف سرسوب الإحسان الذي مُدّ إليهم لفترة قصيرة عقب وفاة والده. وأضطر "لامبولينا" مرة أخرى للخروج للعمل ليعيل أمه، لكن هذه المرة لم يكن يخرج بعيدا عن المنزل. فقد التحق بصبيان "المعلم رمضان" الذي يملك الفراشة القائمة أمام مقهى "المعلم شعبان"، وكانت مهمته رتق خروق الأقمشة، ودهان اللمبات الجديدة أو حائلة اللون، وتغيير اللمبات المحروقة في حبال الإضاءة، وغيرها من المهام التي يستطيع أداءها متدحرجا على الأرض. لكن كثرة الدحرجة طوال النهار كانت تهد كيان "لامبولينا"، وبمجرد إنتهاء العمل كان يتدحرج صاعدا السرير إلى جوار والدته مرتميا في أحضانها. ويظل في تلك الدائرة طوال الأسبوع هاجرا اللعب مع أصدقائه، وحتى في الإجازة كان يتعلل بالإجهاد مكتفيا بمتابعتهم من نافذة الحجرة المطلة على الحارة مشجعا في لعبة صيادين السمك، ومحكّما في كرة القدم، وواشيا في الاستغماية.

شعر يوما من الأيام باشتعال تلك الجمرة في إحشائه- والتي لا يدري لها أصلا- فأخذ يتجنب أحضان والدته، محاولا في الوقت ذاته إخماد جذوة ناره. وعندما اشتدت تلك الجذوة كف عن التدحرج صعودا وتمدد على أرضية الحجرة متحججا بأن ليونة الفراش تؤلم ظهره. وظلت تلك الجذوة تشب نارها رويدا رويدا، وهو لا يعرف ماذا أضرمها ولا يعرف كيف يخمدها. فكان يثب منتصبا أمام النافذة لعلّ هواءها البارد يطفئ ناره. لكن بدلا من أن تطفيء النافذة ناره، أضرمت فيه - بما حملته رياحها - المزيد من النيران. فمن موقعه عند النافذة أخذ يسمع أصواتا لم يفهمها صغيرا عندما كانت تصدر من أبيه وأمه، أما الآن صار لديه حدس عن ماهيتها. حدس شديد القوة والسخونة والوطأة. كان حدسه يرتفع أمام ناظريه عندما يسمع أصوات "أم خالد" بعد وصول "أبي خالد"، ثم يزداد ارتفاعا عندما تتردد أصداء "أم شعبان" مرحبّة بدخول "أبي شعبان". أما أصوات "أم سعيد" بعد وصول "أبي سعيد" – حسنين المزين- فلم تثر فيه أي حدس على الإطلاق، فقد كانت دائمة الشجار معه بعد رجوعه من سهرات الحشيش التي يقضيها كل ليلة عقب انتهاء عمله. أما شعر جسده كان ينتصب بالكامل عند سماع أصوات "أم سعيد" بعد أن يلمح تلك الظلال المتسللة قبل عودة "أبي سعيد" من لياليه الزرقاء.

وبقاء "لامبولينا" عند النافذة جعله يتابع كل ليالي الحارة بألوانها المختلفة بأذنيه مختفيا خلف شيش النافذة، متلصصا من بين ضلفتيها، متقمصا "جيمس ستيوارت" في نافذته الخلفية. فبعد أن شاهد

الفيلم على مقهى "المعلم شعبان" صار يتسمع الأصوات ويتعرف عليها جيدا. فيعرف موعد صوت "أبي يوسف" و"أم يوسف"، وإن كانت "أم هناء" راضية عن "أبي هناء" أم ساخطة عليه. ونوع الملابس التي ترتديها "أم سمير" لـ"أبي منى". لكن ظلت تلك الظلال المتسللة إلى شقة أم سعيد تثير فضوله. تتبع تلك الظلال لفترة من الزمن حتى عرف جيدا موعد وصولها. تسلل خفية وراء صاحب الظلال حتى دلف خلفه إلى المدخل المظلم للمنزل، لكنه فوجئ بيد تسحبه نحوها ثم شعر بخنجرين ينغرزان في عينيه ويقتلعانهما من جذورهما.

تولت هذه المرة أم لامبولينا دفن جسد ولدها في الخرابة ثم خرت ميتة فوق القبر لتلحق بزوجها في قبره. ولكن لامبولينا لم يعد يصلح للعمل بتاتا لذا طرد من شقة المعلم شعبان شر طردة. فلم يجد له ملاذا سوى الخرابة. ولم يجد طعاما سوى ما يلقيه سكان الحارة من قمامتهم داخل الخرابة، أو ما يجود به بعض أهل الخير عليه من طعام. أما الشراب فقد كان يشرب من قهوة المعلم شعبان الذي كان يوبخه ويسبه كلما طلب كوبا من الماء أو جلس يشاهد أحد الأفلام من بعيد بحجة أنه يؤذي الزبائن بمنظره الشؤم. ظل لامبولينا يتحمل تلك الإهانات ليس فقط من المعلم شعبان ولكن جميع أهل الحارة تقريبا.

ظلت تلك الاستكانة هي طبع لامبولينا حتى حدث ما حدث تلك الليلة. كان لامبولينا منكمشا في أحد أركان الخرابة متدثرا بكرتونة مهترئة كانت تحوي الثلاجة الجديدة التي اشتراها "أبو يوسف" مساعدة ليوسف في زواجه. كانت ليلة شتوية شديدة البرودة كادت فيها أوصال لامبولينا أن تتجمد وظل لساعات طويلة يحاول أن ينام لكن منعه تلك الارتعاشة التي ألمت بأوصاله وحالت دون ذلك. لم يكد لامبولينا يتذوق طعم النوم بأطراف أهدابه حتى تسلل إلى أحلامه ذلك المواء الجائع من جواره فأيقظه ورأسه يفور. صرخ لامبولينا "مين هنا؟" سمع شهقة فزع أنثوية تنطلق قريبا منه أتبعتها خطوات تفر من الخرابة، بينما اقترب منه صوت رجولي مكتوم تعرفه جيدا هدده قائلا "أخرس يا ابن الكلب لأقطع لك لسانك" ثم انهال عليه صفعا وركلا. عندها ولأول مرة استشاط لامبولينا غضبا وجذب هذا الواقف فوق رأسه وأمسك برقبته وراح يخنقه "أنا مش ابن كلب يا ولاد الكلب" ثم سحب لسان مهاجمه بأقصى قوة حتى اقتلعه من جذوره. وبعد ان أفلت مهاجمه راح لامبولينا ينبش قبور أشلائه وأخرجها واحدا تلو الآخر. فربط عينيه بدوبارة ولفهما حول عنقه، ووضع ساقيه في حجره، ثم دس قضيبه في فمه وأبرزه من بين شفتيه بدلا من لسانه، ثم

انطلق في الحارة مرددا صرخته الشهيرة لتدوي في أنحاء الحارة جميعها "دا الحديد بولي وإحنا لامبولينا".

ظلت الحارة تتسائل لأيام كيف فقد يوسف لسانه، وتتحسر مشفقة لأن هذا حدث قبل فرحه بأيام وبالطبع رفضت عروسه الزواج بأخرس. وبعد أشهر قليلة أشعلت "أحلام" ابنة الحاج "أبي خالد" النار في نفسها، وذلك للأسف قبل فرحها بأيام. خفت ذلة لامبولينا ومسكنته قليلا بعد أن تخلص من اثنين ممن يسومونه سوء العذاب.

العجيب أن هذه الحوادث كانت بداية لحوادث مماثلة. فهاهو المعلم "شعبان" يفقد كلتا يديه وكأنه لص زنيم. أما أم سعيد فقد فقدت ثديها الأيمن بعد أن فقدت أبا سعيد بيوم واحد. وارتبطت تلك الحوادث بصرخة لامبولينا التي صارت وكأنها صرخة الموت حتى صارت صرخة شؤم. وراحت الأصوات المستهزئة بلامبولينا تخفت واحدا تلو الآخر حتى لم يعد يسمع في الحارة سوى صوت واحد هو صوت لامبولينا وصرخاته. وصار الرجال يرهبون لامبولينا ويخشون هيئته المفزعة، بينما راحت النسوة يشتهينه.

صمت جميع أهل الحارة خشية افتضاح أمرهم. فظل الصمت والغضب المكتوم داخلهم يقتات عليهم حتى كاد يقضي عليها. حتى فاض بهم جميعا الكيل في النهاية وقرروا أن العيش مع الفضيحة خير من أن يدفنوا أحياء. واجتمع الأبهات والحجاج والمعلمين ومن بلا لقب داخل قهوة المعلم "شعبان" بعد أن أمنوا إطلاّع لامبولينا عليهم. وأسروا النجوى إلى بعضهم البعض وقد تحول الشعور بالخجل والخزي أو الغيرة والحمية ترف لا يستحق الإلتفات إليه وقد باتت حيواتهم مهددة. أجمعوا أمرهم وتسللوا خفية إلى الخرابة حيث يرقد لامبولينا وانقضوا عليه انقضاضة رجل واحد. وبينما راحوا ينزعون أشلاءه عنه، المتوفاة والحية، راح لامبولينا يقهقه صارخا صرخاته المعتادة. وعندما انتهوا من تمزيق لامبولينا أربا، وزعوا أجزاءه في نواحي الخرابة ودفنوها عميقا حتى لا تخرج يوما وتتجسد أمامهم من جديد.

ظنوا جميعا أنه بموت لامبولينا ستعود الحارة إلى صخبها القديم، لكن هذا لم يحدث وظلوا صامتين. ظنوا جميعا أنه بموت لامبولينا ستتوقف الحوادث المشؤومة عن الحدوث، لكن هذا لم يحدث وظلوا يفقدون أعضاءهم عضوا عضوا. وظنوا جميعا أنه بموت لامبولينا ستتوقف صرخاته المدوية، لكنها ظلت تدوي قبل كل حادثة مرددة "دا الحديد بولي وإحنا لامبولينا".

بحاشية الفذلكوني

بسم الباطن الذي ما دونه شيء. وبسم الظاهر الذي لا يعلوه شيء. بسم الذي أمات وأحيا، وأضل وهدى، وجمع وفرّق. بسم القاهر فوق عباده. بسم الله الرحمن الرحيم. وبه ثقتي وبه أستعين. نحمده على إيجادنا من العدم وزرع فينا اليقين. أشكره ما شكره الشاكرون. وأذكره ما غفل عن ذكره الغافلون. وأستهديه في ذكر رواية طال بها الأمد. وباعدت بيننا وبينها السنوات ذات العدد. مستجليا خفاياها. وشارحا لخباياها.

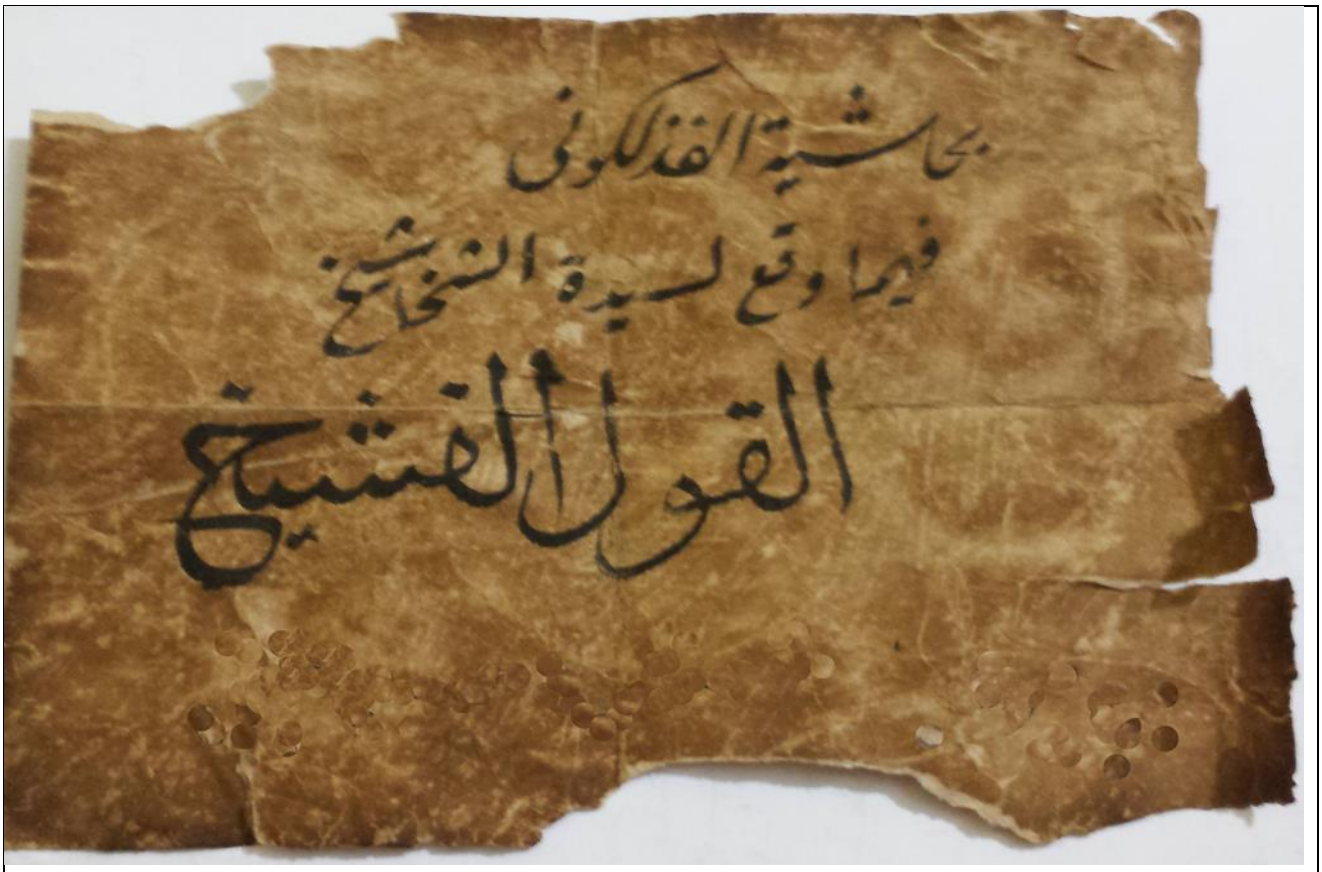

أثار الاتجاه المعكوس لعنوان الكتاب من أسفل لأعلى الكثير من التساؤلات على مر العصور. البعض ذهب إلى أنها كانت مجرد مسودة للعنوان وضمت خطأ إلى الكتاب عند التسفير بدلا من الغلاف الأصلي وهو الأرجح عندنا.

وقد أورد هذه الرواية شيخنا الثبت الثقة أبو معلوف الوليد بن معمر بن سنان الخلفوني في كتابه الشهير الذي طبقت شهرته الآفاق، وربت فائدته حتى فاق؛ كتاب "القول الفشيخ فيما وقع لسيدة الشخاشيخ". وقد جمع مولانا في كتابه هذا عددا من الروايات عن آل نبهان الذين ملكوا أرض الخاقان لردح من الزمان. وقد تتبع مولانا عددا من الأقوال المتناثرة في كتب الأقدمين وصاغها في شكل أدبي بديع. وقد كانت الأقوال بمثابة المتن وإضافاته كأنها الشرح على المتن. وحاول بذلك سد

ثغرات الروايات المتناثرة وجعلها قصصا متماسكة متتابعة. ولأن الكمال لا يجتمع إلا للواحد. ولا يحوزه في العالمين واحد. رأيت أن أضيف بعض التعليقات على ذلك الكتاب البديع سدا لما اعترى بعض جزئياته من الخلل. وما وقع فيه شارحه من الزلل. فجاء كتابي كالحاشية على الشرح، وسميته حاشية الفذلكوني. راجيا من الخلاّق، أن يكون لي من دعاء الصالحين خلاق. وهاأنا أعرض في الأسطر القليلة القادمة للسادة القراء أهم حكاية من تلك الحكايات التي جمعها الكتاب بين دفتيه والتي تدور في السنوات الأخيرة من ملك آل نبهان. وأترككم الآن مع الحكاية البديعة.

"في أرض الخاقان. في سالف الأزمان. ورث الملك حسان العرش عن أبيه نبهان. وورث من ضمن ما ورث شخشيخة صغيرة كانت له أيام الرضاعة. وحينما حضرت الملك نبهان المنية. أسر في أذن ولده حسان بوصية.

- يا بني، ما هذه الشخشيخة بالنسبة لك؟

فرد حسان:

- هي أنيس طفولتي ومؤنس وحشتي.

فهمس نبهان فى إعياء:

- أمّا لي فهي منقذ سلطاني وموقظ غفلتي.

عقد حسان حاجبيه غير مستوعب ما يقوله أبوه السلطان الراحل[1]. فعاجله بالإجابة وقال له:

- هذه الشخشيخة لها خاصية عجيبة هي أنها كانت تصدر أصوات اللهو الرنانة الي تملأ أرجاء القصر صخبا وضجيجا عندما تهزها بكفيك الصغيرين. لكن عندما كان يحيط بي خطب جليل. أو يدبر لي أمر بليل[2]. كانت تصدر هذه الشخشيخة صوتا محذرا لا يسمعه

[1] اختلف بعض العلماء في تفسير تلك العبارة. فبعضهم قال أن استخدام وصف الملك نبهان بالراحل كانت على سبيل المجاز لأنه كان في النزع الخير وبدأ طريق الرحيل. والبعض الآخر رأى أن الملك رحل بالفعل قبل أن يشرح لابنه حسان معنى قوله، فظل الملك حسان يدور حول نفسه حائرا لا يفهم كلام والده حتى جاءه في المنام وأخبره بقصة الشخشيخة. لكنني أميل للرأي الأول فهناك شواهد تدعمه كما سنرى في ثنايا الحكاية.

[2] كلمة "جليل" وكلمة "بليل" ليستا على نفس الوزن، لذا أرى أن هذا خطأ الناسخ وليس كما يرى البعض أن الرواية بها بعض الكلمات العامية.

سواي، ولا يفهمه إلاي. فأعط هذه الشخشيخة لولدك لتكون له أنيسا في الليالي الموحشات. وتكون لك حارسا من الأيادي الغادرات.

تلقى حسان من والده الشخشيخة وارتمى على بطن زوجته وراح يوسوس لابنه في أحشائها بكلمات مهموسة لم يسمعها سواهما[3]. مرت الأيام وولدت زوجته طفله الأول، فكان قرة عينه وعماد عرشه. وجاءت الوفود لتقديم التهنئة من كافة الأصقاع. وقد حمل كل وفد هدايا ثمينة من لدن مليكه للولد والوالد، بينما حمل الملك حسان ولده الأمير بسام وطاف على الهدايا وقد جلست الملكة على عرشها تتبادل الابتسامات مع زوجها ومع وزيره وقد بدا على الجميع سعادة غامرة. وانتفخت نفس حسان بالرضا عن نفسه وهو يستعرض الهدايا الفخمة التي أرسلها له الملوك والحكام من كافة الأقطار، مما يؤكد علو شأنه عندهم. وبينما ظلت الابتسامات المرتمسة على وجوه الجميع بادية، أقفر وجه حسان من الابتسام وكأنه البادية. واقترب من ذلك الصندوق الضخم والذي حمل هدايا ملك الجنوب وقد عقد حاجبيه وهو ينصت لصوت بعيد يأتي من حجرة ولده. صوت لا يسمعه سواه ولا يفهمه إلاه. سحب حسان سيفه بروية وهو يقترب بولده من الصندوق. اختفت الابتسامات حينها وقد بدأ الجميع يترقب حسان وهو يقترب من الصندوق مترقبا ما ينتظره. أشار حسان إلى رسول ملك الجنوب الأصلع الواقف إلى جوار الصندوق بأن يفتحه. وبمجرد فتحه انقضت حية ضخمة من ذوات الأجراس على الولد والوالد. لكن الوالد المتأهب قطع رأس الحية بضربة واحدة من سيفه البتار. شهقت الملكة وهي تنهض من مجلسها وقد راحت أركانها ترتجف ثم سقطت مرة أخرى على عرشها مغشيا عليها. وراح الوزير يصرخ وهو يهرع نحو مليكه وهو يخأخأ:

- خيانة، الويل للخائن، سيعرف ملك الجنوب الخائن عاقبة خيانة مولانا العظيم. سنقتله وآله وجميع أعوانه، بل سندك المدينة دكا على من فيها، وسنبدأ بعبيده الذين أرسلهم مع هداياه النجسة وعلى رأسهم ذلك الرسول الأصلع".

---

[3] البعض يرى أن سواهما تعود على الملك والملكة، والبعض يرى أنها تعود على الملك وولده. ورغم صعوبة تصديق الرأي الثاني، إلا أن تفاصيل الحكاية تنفي صحة الرأي الأول.

صرخ الرسول وهو يضرب رأسه الصلعاء فيما يشبه اللطيم وهو يجثو على ركبتيه منتحبا وهو يقول ورأسه على جسده:

- مولاي سأخبرك.....

بينما أكملت الرأس وحدها وهي تتدحرج مبتعدة عن الجسد المسجى

- .....بالحقيقة كاملة[4].

انطلق الملك من فوره بعد أن قتل جميع عبيد ملك الجنوب ليبدأ في إعداد جيش ليوجهه إليه. وراح الوزير مخلصا يساعد الملك ليس فقط في إصدار الأوامر، ولكن أيضا بإذكاء نار الغضب داخل صدر الملك والتي لم تكن تحتاج في الحقيقة إلى المزيد من الحطب. وقد جمع الملك في أيام معدودات – لم يترك خلالها الأمير الصغير من بين يديه - جيشا جرارا لملاقاة عدوه ودك مملكته وإبادتها. وعندما انتهى الملك وأتباعه من تجهيز الجيش كان التعب قد هده، فوضع ولده في مهده في حجرة الأمير الصغير، ومضى بصحبة الملكة والوزير إلى حجرة نومه لينال قسطا من النوم، وودعته الملكة لتذهب إلى حجرتها، وبعد انصرافها بقليل ودعه الوزير ليلحق بالملكة في حجرتها. وعندما جمعهما الفراش[5] مالت عليه بغنج وهي تقول:

---

[4] أميل إلى أن حديث الرأس المتكلمة هو مجرد مبالغات من الراوي لجذب الأسماع إليه.

[5] بعض العلماء يرون أن الملكة عشقت الوزير لذا خانت زوجها معه وتآمرت ضده. والبعض الآخر يرى أن هذه الزوجة كانت نزقة ولها علاقات عدة مع النبلاء والوزراء وحتى الخدم والعبيد ويستشهدون بأبيات منسوبة إليها تشرح فيها لقائها مع أحد عشاقها.

ضرب الضرطة تلو الضرطة — أطلق سهما ف الأحشاء
سَرَتِ الهزة تنزع روحي — صرتُ الريشة في الأنواء
سال الدنس ليزكم أنفي — يفضح عرضي في الأرجاء
لست أحبه عشقا سامي — أو تقريباً خلف رواء
طيب الريح يُهتِكُ ليلي — مثل نهارا هتكِ ذُكاء
أما الضرطة تستَر عرضي — ستر العتمة للظلماء
تخفى رياحه نَضْحَ الشهوةْ — عندي طهور النجس فِساء

اللغة:
الضراط والفساء هما ريح نتنة تخرج من الدبر فإن خرجت الريح مصحوبة بصوت فهي ضرطة، وإلا فهي فسوة.
التقريب: ركض ولد الثعلب، ذكاء: الشمس، الظلماء: الظلمة.
وركاكة الأبيات لا تحتاج إلى بيان.

– كادت الأفعى أن تودي بحياة وليدي، وكدنا نخسر كل شئ.

فرد عليها قائلا:

كل شيء كان مرتبا له بعناية، لولا ذلك الحدس الذي جعله يتأهب للأفعى فيقتلها. فلولا ذلك لكنت الآن على العرش تحملين المليك الصغير بين ذراعيك وإلى جوارك زوجك الجديد". واصل حديثه الهامس "والآن سيخوض معركة لا قبل له بها ضد ملك الجنوب وسيقضى عليه"، لكنها ردت عليه "ومن قال أنني سأنتظر حتى يذهب إلى المعركة، وبعد طول انتظار قد يعود لي محمولا على الأعناق بدلا من أن يحمل على الأكتاف". عقد حاجبيه متسائلا "ماذا تعنين؟"، ابتسمت "إنه غارق في النوم الآن. وإن كان للمستيقظ حدسا، فليس للنائم ذلك" فانطلقت ضحكاتهما فأسكتاها بقبلة طويلة، وفجأة أسكت قبلتهما الطويلة صرخة هلع ندت عن الملكة وشهقة فزع صدرت عن الوزير عند دخول الملك حسان عليهما وهو يحمل رأس ذلك الجندي الذي أرسلته الملكة لقتله وعندما خرج الملك من مخدع مليكته السابقة كان يحمل في يديه أربع رؤوس[6]، وتوجه إلى مخدع الأمير الصغير. مال على الأمير الراقد في مهده بسلام وقد أخفى خلف ظهره الرؤوس المقطوعة. قبّل الصغير في رأسه، ثم مرر أصابعه الدامية على الشخشيخة الصغيرة الراقدة في أحضان الأمير، وعندها فقط توقف ذلك الرنين المحذر الذي ظل يتردد في أذنيه وأيقظه من نومه قبل أن يتم الفتك به.

كرت الأيام ومرت. وشب الأمير محبا للفروسية والقنص مرتحلا من مكان لآخر غير آبه لعرش أو مكترث لملك. حاول الملك إثناء ابنه عن هواياتها وحثه على الاهتمام بأمور عرشه، إلا أن جهوده ضاعت أدراج الرياح. وأضطر حسان لمخالفة وصية والده بعدم إخبار ابنه بسر الشخشيخة، فقد طلب منه والده عدم إخبار ولده بأمرها إلا وهو في النزع الأخير كديدن أبائهم وأجدادهم من مئات السنين. ولأن الأمير بسام كان دائم الترحال[7]، فقد خشي والده أن توافيه المنية

---

[6] اول من انتبه لذلك الخلل في العدد كان العلامة محسوب العداد على وزن الخياط. وقد فسره البعض بخطأ الناسخ. ولكن البعض فسره بأنه ثمة جارية كانت مع الملكة والوزير تقوم على خدمتهما أثناء لقائهما الآثم، فقتلها الملك جزاء تسترها عليهما.

[7] قيل أنه أثناء رحلات الأمير بسام كان يترك الشخشيخة في القصر ولا يصطحبها معه. والبعض الآخر قال بل كان يصطحبها في حله وترحاله، والحقيقة أن هذا الرأى الأخير لا يقره عقل ولا نقل.

وهو بعيد عن البلاد فلا يجد الفرصة لتنبيهه لشأن الشخشيخة، فيضيع الملك الذي ظلت الشخشيخة لأجيال محافظة عليه وعلى حيوات من ملكوه.

وفي إحدى رحلاته حدث للأمير ما يحدث لجميع أمراء الحواديت. فلمح تلك الحورية وهي تخرج من الماء على هيئة أمها حواء. حورية تشبه تلك الحوريات التي يتحدثون عنها في الأساطير. الحورية الحسناء التي تسلب عقل من يراها وتسبي قلب من يهواها فيهيم كالمجذوب يبتغي رضاها. وعندما شعرت بخطواته تقتفي خطواتها، اختبأت خلف تلك الوريقات الخضراء تداري بها سوءتها. وقد زادها الخفر جمالا، وحمرة الخجل زادتها سحرا، وزادها صوتها المتقطع كزخات المطر رقة وجاذبية وهي تصرخ متسائلة عن كنه ذلك الغريب الذي يتبع خطواتها "أشر تريد؟" فترقرق صوته كقطر الندى وهو يقول "بل كل خير" فقالت باضطراب "وهل الخير يتجسس؟ ويقتفى الخطو ويتحسس؟" فرد الولهان الذي ذهب عقله شتتا، وضاع قلبه بددا "وهل يصيب القدر أهله إلا بتوخيه لمواطنهم؟ والله ما أدري من منا اقتفى أثر الآخر، أنا أم أنت؟ ومن منا حث الخطو منتبها خلف خله الغافل، أنا أم أنت؟" جاء الصوت هذه المرة إلى الغنج أقرب "والله ما أحسبك إلا مجنونا، ووالله ما أدري أيطمئنني هذا أم يزيد في خوفي؟" جلس الأمير بسام على الأرض وقال "هائنذا قد اخترت هذا الموضع موطني، وهائنذا في انتظار قدري، عله يتوخى لقائي ولا يتوقاه" مالبث إلا قليلا وخرجت الحورية في كامل زينتها حافية القدمين تتوقى الحصى وتتوخى مجلسها إلى جواره.

وعندما عاد بسام إلى والده حسان بوجه غير الذي ذهب به، لمح الوالد الأنفاس المبهورة والنظرات المسحورة والكلمات المبتورة التي تصدر عن ولده. وعندما صرح الوالد، صارحه الولد. تحرى الملك أمر تلك الحورية، وعندما وقف على أمرها حاول أن يثني ابنه عن عزمه. لكن أنى لعزائم الرجال أن تستنقذ من أوقعه الحب في مصايد الحبال. وعندما فشل الوالد في مسعاه لدى ولده. سعى برجاله في طلب تلك الساحرة. وعندما أحضروها ترفل في قيودها وقد أُركعت أمام مجلسه وقد سُترت رأسها بحجاب ثقيل، انتصب الملك في مجلسه بقامته المديدة وجسمه العريض ونفخ صدره ورسم نظرة مغضبة حتي يرهبها عساها تفر من أمامه لا تلوي على شيء. أمر الملك برفع الحجاب عن رأسها وعينيها، فإذا بابتسامة شامتة تتبدي أسفل ذلك الحجاب، ونظرة مرعبة هزت ذلك القلب الذي لم تهزه عزائم الرجال وقهرهم. نظرة المتيقن من فوزه وهلكة من أمامه. بصوت

مرتعش صرخ "إن لم تبتعدي عن ولدي كشفت أمرك أمامه" نفخة استهزاء خرجت من منخريها وهي تقول "هل ستقول له إن من تحبها هي ابنة الوزير عشيق أمك؟ وأنني أخفيت عنك أني قتلتهما في الفراش سويا؟ وتقول له أني بحثت طويلا عن عائلة الوزير بعد فرارها في جنح الليل خوفا من مكري حتى أتخلص منها لكني فشلت؟" زفر بغضب وقال "لست في حاجة لذلك. يكفيني أن أقطع تلك الرأس التي أشبهت رأس أبيها" قالت بدلال وغنج مغيظ "ربما ورثت عن أبي رأسه، لكني ورثت جمالي ودلالي وسحري عن أمي ابنة الجان، لذا فقبل أن أودع حبيب قلبي، وأدع رجالك يخطفونني، تمرغت في أحضانه دامعة العينين متهدجة الصوت، أشكو له خوفي من مكرك بي والذي قد يقودك إلى نفيي أو حتى قتلي." ثم قامت من ركوعها وقد سقطت عنها الأغلال الحديدية الثقيلة التي حسبوا أنها تقيدها إلى الأرض بصوت مدو فزع له قلب الملك، والذي كان في مواجهة صناديد الرجال ثابت الجنان واقتربت منه وهمست في أذنه "لو كنت تظن أن حياة الساحر خطرا على المسحور، فاعلم أن موته أخطر. فبعد أن يذهب الساحر فلا شفاء من سحره إلى يوم الدين. فهائنذا أمامك فلتفعل بي ما بدا لك، رغم قدرتي على صده". أرتج على الملك الصنديد، وفعل فعل الرعاديد، حيث أخفي عينيه وخفض رأسه وراح يطوحها يمينا ويسارا ثم فتح عينيه رويدا رويدا علّ كابوسه الماثل أمامه يختفي من تلقاء نفسه. لكنه ظل ماثلا أمامه جاثما على صدره. ظلت تلك الابتسامة المتحدية تطل عليه من علٍ للحظات تحولت بعدها تلك الابتسامة إلى ضحكة مدوية زلزلت أركان قصره وتلاشت رويدا رويدا مع تلاشي الجنية ابنة الشيطان في الهواء.

جمع الولد حاجياته في جنح الليل وقد عزم على ترك مملكة والده وملكه بعد أن رأى عزم أبيه على التفريق بينه وبين زوجه. وعندما عاد بسام إلى مليكة قلبه وجدها مضرجة في الدماء تحمل بين كفيها نطفتهما التي لم تر نور الحياة سوى لبضعة أشهر والدموع تفيض غزيرة من عينيها النجلاوتين والدماء تسيل من كتفها الجريحة. ألجمها بكاؤها عن الكلام وألجمه غضبه عن الوعد والوعيد. عاد الأمير من فوره إلى قصر أبيه وبدلا من أن يدلف إلى حجرته اتجه فورا إلى حجرته. كان الأمير قد خلف وراءه الشخشيخة كي تكون الحارس لوالده من كل متربص يريد به السوء. ولأنه هو يريد به السوء عليه أن يتخلص من الشخشيخة قبل أن يقترب من والده النائم بتلك النية الفاضحة. فاتجه إلى حجرته ومال على مهده القديم ليتناول الشخشيخة القديمة. وعندما إطمأن أنه بمقدروه أن ينال ثأره دون خشية من استيقاظ قاتل ابنه تحسس طريقه في ظلام الليل الدامس إلى حجرة الملك.

وفي الصباح جلست الزوج الحنون على رأس حميها تبكي رحيله والدموع الغزيرة تفيض من عينيها حزنا على مقتله غيلة. وإلى جوار الملكة يقف الوزير الجديد - ابن عم الملكة - يواسي الملك في مصابه والدموع تفيض من عينيه أيضا. بينما جمدت الدموع في عيني الملك الصغير وهو يتأمل جثة والده الممدة إلى جوار رأسه التي تحمل التاج الملكي، وقد أمسك بين أصابعه بفتات الشخشيخة القديمة[8]."

[8] أدت العبارة الأخيرة "وقد أمسك بين أصابعه بفتات الشخشيخة القديمة" إلى الكثير من اللبس عند العلماء فجميعهم رضوا بتفسير العلامة الخلفوني لها بأن الأمير هو من كان يمسك بالفتات بين أصابعه. والحقيقة أن هذا المعنى لا يستقيم، فبتكسير الشخشيخة خسر الأمير حارسا أمينا يقيه مصارع الرجال. ولكن البعض دافع ضد هذا المنطق قائلا أن الأمير كان همه الأول هو الثأر لولده وزوجته ولم يبال يوما بالملك وما يجره عليه. ولكن رغم ذلك نميل لتصديق ذلك التفسير الذي قدمه أحد كبار العلماء وهو الشيخ خلف المخالفي والذي استند فيه على رواية ضعيفة لم يقبلها جمهور العلماء والتي وردت عن طريق أحد المناكير والتي تسرد نفس الحكاية التي سردناها بالأعلى مع إضافة تلك السطور ما بين المعقوفين إلى النص السابق:
"فاتجه إلى حجرته ومال على مهده القديم ليتناول الشخشيخة القديمة. {وغادر بعدها الأمير القصر مسرعا مرة أخرى وقد حمل بين طيات ملابسه حارس والده. وعندما ابتعد عن المدينة أسلم زوجته الجريحة - والتي كانت تنتظره خارج أسوار المدينة - الشخشيخة وطلب منها وضعها في جرة سحرية طلبها من أحد السحرة لتخفي أصوات الشخشيخة. وبعدها عاد مسرعا مرة أخرى ليقتص من قاتل ابنه. وبينما جلس الملك حسان يحتسى شرابه الدافئ قبل أن يخلد إلى النوم، شعر بذلك الخدر يسري في رأسه وجسده. عندها نظر إلى تلك الخادمة التي قدمت له الشراب فوجدها تستطيل وتتحول إلى هيئة أخرى. تتحول إلى تلك الجنية التي سحرت ابنه. حاول أن يصل إلى سيفه إلا أنها أحاطت به وقالت له "لا تخف. لن أقتلك. فقاتلك في طريقه إليك. أردت فقط أن اخدرك بعشب وضعته في شرابك حتى لا تذهب بعيدا وترقد في مكانك بانتظاره. علت ابتسامة خافتة وجه الملك حسان وقد بدأت الدنيا تغيب من أمام عينيه. فهمست الجنية في أذنه "أتبتسم؟ أتظن أن حارسك سيكون موجودا لإيقاظك؟" عقد الملك حاجبيه فأكملت "أعلم أن أصوات الشخشيخة كفيلة بإيقاظك من أظلم ظلمات النوم، وأشد الأعشاب المخدرة تأثيرا لن يكون لها تاثير مع ذلك الصوت القوي للشخشيخة. فالمخدر فقط ليبقيك نائما فلا تستعد لملاقاة قاتلك بحراسك فيقبضون عليه. المخدر سيجعلك تنام حتى تجد قاتلك واقفا فوق رأسك فلا تجد أمامك سوى خيار من اثنين، إما أن تقتل ابنك وعيونك تسيل حسرة عليه، وإما أن تراه وهو يقتلك وكراهية الدنيا تطفح من عينيه. ولكي أضمن استيقاظك من سباتك العميق، أحضرت حارسك الأمين معي" وضعت الشخشيخة في يده وضحكت بينما تتلاشى في جو الحجرة مخلفة الملك حسان يتلوى في رعب على أرض حجرته وقد فهم ما ترمى إليه ابنة الأبالسة. لم يكن أمام الملك سوى أن يقتل ولده بيديه أو يرى بعينيه ولده وهو يقتله. لذا راح يزحف ببطء وبكل ما تبقى له من قوة نحو سيفه المعلق إلى جوار سريره. تحامل الملك على نفسه وأمسك بسيفه وبضربة واحدة هوى على الشخشيخة وفتتها، ثم تهاوى إلى جوارها وراح في سبات عميق لم يستيقظ منه أبدا} وعندما إطمأن {الأمير} أنه بمقدروه أن ينال ثأره دون خشية من استيقاظ قاتل ابنه تحسس طريقه في ظلام الليل الدامس إلى حجرة الملك."
لكن البعض انتقد هذه الرواية قائلا إن الأمير لو وجد فتات الشخشيخة بين أصابع والده لكن فطن إلى الخدعة التي قامت بها زوجته، وهذا ما لم يحدث، أو على الأقل لم يقم عليه دليل.

إلى هنا انتهت حكاية الشخشيخة السحرية التي كانت سببا في بقاء ملك آل نبهان لعمر مديد من الزمان. ونحمد الله على نعمائه ونسأله التوفيق والسداد.

تمت بحمد الله

الغارقون في مية البطيخ

صك هذا السؤال مسامع عقلي بينما كنت في سبيلي لإنهاء رسالة الماجستير خاصتي والمعنونة "مملكة الجحوش.. النشأة والاندثار". نتيجة لانشغالي وقتها في إنهاء الرسالة صممت أذني عن هذا السؤال كلما رن في أرجاء رأسي. كنت دوما أتساءل عن أصل تلك لمقولة التي تتردد عند الحديث عن بعض القوم في مواقف معينة، ووصفهم بأنهم "دول عايمين في مية البطيخ" أو "ده عايم في مية لبطيخ" وهذا إن كان محور الحديث هو فرد واحد فقط. واستمر إعراضي عن محاولة إجابة هذا السؤال حتى بعد إنهائي سالة الماجستير؛ وذلك لانشغالي في مهام وظيفتي الجديدة والتي حصلت عليها عقب حصولي على الدرجة العلمية. وظل هذا الانشغال مدة طويلة، وكنت أتوقع أن يدوم لفترة أطول لولا ظروف ألمت بي أجبرتني على التفرغ لفترة والحصول على إجازة من العمل وعندها وجدت فسحة من الوقت للتخطيط للإجابة عن هذا السؤال.

وبالفعل وضعت خطة جادة للبحث عن إجابة. ربما سأل سائل، بغض النظر عن لون هذا السائل، ما وجه اللبس في هذا التعبير؟ فهو واضح تمام الوضوح، وبيّن في غاية البيان. فهو للتعبير عن لامبالاة الشخص الموصوف. وحتى لو سلمنا بأنه قول ملبس وملغز، فما أهمية إزالة هذا اللبس وحل هذا اللغز. فالعائد لا يضاهي الجهد المبذول. أما عن إجابة السؤال الأول فهي ببساطة ودون رطانة ولا فخيم كلام، فأصيل الحديث طلاوته أصالته، ما علاقة البطيخ باللامبالة؟ وبما أن إجابتي هي سؤال فوجب علي المزيد من الإيضاح، لماذا يوصف من يأكل البطيخ حتى يغرق بمياهه باللامبالي، هل لأنه يتخذ وضعا جسديا غريبا، حيث يعلق كوعيه في الهواء ويغوص بأنفه ف أحشاء شقه البطيخ، ويقعر بطنه للداخل، ويباعد ما بين رجليه، ويتخلى عن كل كياسة البشر التي تعلموها على مدار حيواتهم من لدن آدم إلى لدن ماكدونالدز وكنتاكي، ويتركز كل ذهنه ونشاطه العقلي حول أمر واحد فقط، هو كيف يصيب نصيبه من لحم البطيخ دون أن يصيبه من مرقه الأحمر أذى، عندها يغرق الملتهم حتى أذنيه في الدماء المتدفقة من أحشاء بطيخته. وقد يحتمل التشبيه معنى آخر، فعند الفراغ من التهام البطيخة، يصبح جوفها قاعا صفصفا تصفر فيه الرياح، ويتبقى في قعرها ثمالة من عصيرها الأحمر ويطفو على هذه الثمالة بعض من اللب الأسود والذي يتبقى بعد أن يكون قد شبع الملتهم من المضغ والشفط والقزقزة ومصير هذا اللب هو إلى الجفاف والموت. ويكون وصف "العوم في مية البطيخ" من نصيب اللب وليس الملتهم، وهنا يكون المعنى هو عدم أهمية الموصوف وقلة الاكتراث له والالتفات إليه فتضيع حياته سدى بلا طائل ودون أن

يؤدي دورا حقيقيا في الحياة، بعد أن ظل سنوات عمره منذ أن كانت المرحومة أمه نبتة صغيرة في بطن الأرض وهو لبة صغيرة في بطنها ينتظر تلك اللحظة التي سيخرج فيها للدنيا فيعمر تلك الأرض ويملأ أرجاءها كورا صغيرة خضراء فاقعا ظاهرها تسر الناظرين حمراء مرملا باطنها تلذ للآكلين، فإذا بحياته تضيع راقدا على ظهره بلا حول ولا قوة ينتظر أن توافيه المنية ليموت صبرا من الجوع والعطش. وحينها يكون التعبير دلالة على خيبة الأمل بعد شدة الرجاء. فكان الهدف من مقالتي العلمية التوصل لأي المعنيين هو الأصوب، والتأكد إن كان قد حدث انحراف للمعنى من أحد المعنيين في فترة تاريخية معينة على حساب المعنى الآخر أم لا؟

أما من يتشكك في الجدوى العلمية لهذا السؤال، فأؤكد من على منبري هذا أن العلم، وهو المطية التي يمتطيها فرسان الحق ليذودوا عن حماه، هو المنوط به توضيح كل ما يدق على الأفهام وتبسيط كل ما يجل على الأحلام. فالعلم للإنسان هو مقيل عثرته، وكاشف غمته، وجالي صدأته، وحادي صحبته، وساحب بغلته إلى بر الأمان.

وكما هو متعارف عليه في الأوساط العلمية، فقد بدأت بحثي برصدٍ للجهود العلمية السابقة والتي بذلت لجمع وتحليل بعض العبارات الشعبية المحتوية على مزروعات ودلالتها الاجتماعية. وقد أكد لنا هذا البحث أن تلك العبارات رغم كثرتها، إلا أن الجهود المبذولة في دراستها - على حد علمنا - لا توازي تلك الكثرة والأهمية.

ومن أوائل الجهود في هذا الشأن هو ذلك البحث الرائد الذي حاول استجلاء دلالة وأصول ذلك التعبير ذائع الصيت "زي القرع يمد لبرة". وهذه الأطروحة كانت ذات أهمية بالغة حيث أنها أرست المنهجية التي يجب إتباعها عند جمع وتنظيم وتحليل البيانات المتعلقة بتلك الدراسات الخاصة بالدلالة الاجتماعية للتعبيرات الزراعية. وقد سارت جميع الدراسات اللاحقة بما فيها هذه الدراسة على ذلك النهج. لكن للأسف رغم نشره بعض المقالات وإلقائه عدة محاضرات في المؤتمرات العلمية، إلا أن الباحث لم يتم أطروحته، وذلك نظرا لسفره إلى إحدى دول الخليج للعمل كمدرس إعدادي. وقد فشلتُ في التواصل معه للوقوف على آخر ما توصل إليه قبيل توقفه وذلك نظرا لتنقله بين عدة دول من دول الجوار.

والبحث التالي للبحث سالف الذكر ليس فقط من حيث الترتيب الزمني ولكن أيضا من حيث الأهمية، هو ذلك البحث الذي خصص لتحليل مقولة "مجنونة يا قوطة". وترجع أهمية هذا البحث

إلى أنه بالإضافة إلى كونه بحثا لغويا اجتماعيا إلا أنه يمس الحياة الاقتصادية للمجتمع بصورة مباشرة خلافا لبحث "القر ع". وقد سار البحث جيدا في البداية لولا أن شهدت البلاد ارتفاعا جنونيا في الأسعار، ولأن هذا البحث لم يكن مدعوما من أية جهة سواء حكومية أو خاصة، ولأن الباحث لم يكن ميسور الحال؛ فقد توقفت تلك الدراسة الجادة بسبب التمويل. ولإعطاء لمحة عن مدى ارتفاع الأسعار في ذلك الوقت يكفي أن نذكر أنه إذا ما توجه أحدهم وقتئذ إلى مطعم وطلب سندويتش طعمية بسلاطة قوطة، كان يكتشف أن سلاطة القوطة عبارة عن خس وخيار وشبت وكانت خالية تماما من القوطة، وهو ما يعرف في المنطق بالتناقض paradox. وبتوقف ذلك البحث فشلنا في معرفة أسباب وأصول عبارة "مجنونة يا قوطة".

ومن الأبحاث الجديرة بالذكر أيضا ذلك البحث الذي تناول مقولة "في المشمش". وقد كان هذا البحث واعدا حيث توفرت له كافة عناصر النجاح. حيث إنه كان ممولا من إحدى المؤسسات العلمية الأجنبية. كما أن الباحث كان ميسور الحال فتوفر بكليته على البحث دون أن يشغله شاغل آخر. كما تمت الاستعانة بأحد أهم الأساتذة في مجال الدراسات اللغوية ألا وهو الأستاذ الدكتور "عباس البرقوقي". إلا أن هذه الدراسة توقفت أيضا، وقد قيل في أسباب توقفها أن خلافا ما دب بين الباحث والأستاذ "البرقوقي"، حيث أن الباحث كان يرى الأخذ بظاهر النص وهو أن حرف الجر "في" في هذه العبارة للدلائة على الزمان، أي "في موسم المشمش". بينما كان يصر الأستاذ "البرقوقي" أن حرف الجر هنا للدلالة على المكان، مثل "في المشمش نواة كبيرة". وقد أدى ذلك الخلاف في التأويل إلى انحراف الدراسة وتشتتها مما اضطر الأستاذ البرقوقي للاعتذار عن الاستمرار في المشاركة في هذه الدراسة الضخمة. كما أن ثمة مشكلات أخرى لم يكشف عن ماهيتها أدت إلى جعل اتمام تلك الدراسة أمر لن يحدث إلا في المشمش.[9]

وهكذا يكون بحثنا هذا ذو أهمية كبرى لأنه البحث الوحيد الذي اكتمل حتى نهايته مفسرا المقولة موضوع البحث. والآن سنلقى الضوء على بعض المصادر التي اتبعناها في البداية لجمع البيانات أثناء قيامنا بهذا البحث.

[9] بعض الشائعات التي فسرت توقف ذلك البحث أكدت أن ثمة شبهات دارت حول تلك المؤسسة القائمة على تمويلها وأنها تابعة لإحدى الدول غير الصديقة، مما أضطر الباحث للتخلي عن الدراسة تبرئة لساحته.

كان المصدر الأول لنا هو عم "مغاوري الفكهاني، وذلك لكبر سنه. فقد توقعنا أن كبر سنه سيكون عونا لنا للعودة إلى أصول تلك المقولة. إلا أن كبر السن كان له أثر سيئ حيث تبين أنه يخلط بين الأحداث فكان يحكي لنا بعض الحكايات على أنها خاصة بالبطيخ، فإذا به أثناء الحديث يتذكر أنها حكاية خاصة بالشمام أو حتى العنب. فاضطررنا للتخلي عن هذا المصدر.

أما المصدر الآخر فكان أم "نعمة" وقد توفي عنها زوجها وهي ما تزال شابة قليلة الخبرة والحيلة فاضطرت للخروج كي تعول أبناءها الصغار، وهي في الأصل بائعة خضراوات إلا أنها تتكسب من بيع بعض أنواع الفاكهة المنتشرة والمطلوبة ومنها البطيخ. وكان سبب اختيارنا لها هو ما وقفنا عليه من حكايات دارت حولها في السوق صورتها وكأنها شهبندر تجار الخضراوات والفواكه، لكن تبين لنا أنها مدعية وكانت تغرينا بحكايتها الملفقة فقط لتبيعنا البطيخ.

أما المصدر الأخير فقد كان مصدر مركب من زوج وزوجه وهما "عنتر وعبلة"، وقصة كفاحهما واجتهادهما معا حتى وصولهما إلى أن أصبحا أهم تجار السوق كانت الدافع وراء اختيارنا لهما. إلا أنهما أثناء البحث تحولا إلى "عنتر" و"عبلة"، وكانت تلك الأخبار الملفقة التي أمدونا بها جزءا من الحرب التي نشبت بينهما للاستحواذ على السوق.

بعدما تخلينا عن مصادرنا المختلفة أحاط بنا اليأس وقد بلغ مبلغه، فكنا على وشك التخلي عن الدراسة، وكان مصيرها سيكون نفس مصير الدراسات السابقة. لولا أن مال عم "مغاوري" على الباحث وهو يقول:

- قالوا الجمل طلع النخلة.

وأكمل وهو يربت على كتفي:

- آدي الجمل.

ثم أمسك ببطيخة ضخمة:

- وآدي النخلة.

عندها قررت أنه بدلا من الاعتماد على شهادة الآخرين على أن أعتمد التجربة الذاتية، فاشتريت بطيختين ضخمتين. وعندما انفردت بهما:

1. شققت الأولى إلى نصفين.
2. أما الثانية فبقرت بطنها بضربة واحدة من السكين.
3. وغصت حتى أذني في أكل البطيخ.
4. وعندما فرغت منهما، شعرت بدوار عنيف يكتنف رأسي، وخدر شديد يسرى في بدني.

وقد أتخمت بطني حتى لم تعد قدماي قادرتان على حملي. عندها رحت فيما يشبه الغيبوبة. لم أنتبه منها إلا على ضوء أخضر قوي يشع في وجهي. وفجأة برز من خلال هذا الضوء المبهر رجل يرتدي ثيابا خضرا ذو وجه أحمر شديد الحمرة. حتى لحيته الكثيفة وشاربيه الكثين كانا أحمرين. لم تكن حمرتهما من خضاب ولا حمرة الوجه دلالة على وفور الصحة ولا النضارة. بل بدا وكأن "وحمة" ولادة قد وسمت وجهه بأكمله حتى أنها أثرت على الشعر النابت فيه. طاعن في السن. تفيض الطيبة من عينيه مع تلك الدموع التي سالت منهما. كنت على يقين أني أحلم، لكني تعجبت من وضوحه حتى لكأنه عين الحقيقة. ظل يتأرجح يمينا ويسارا حتى وصل إلى مرقدي. نهضت وأسندت ظهري للحائط القريب. اتكأ على عكازه وهو يهبط ليجلس على تلك الصخرة التي برزت من العدم. نظر في عيني وابتسم ابتسامة مثقلة، وقال بصوت عميق:

- جئت لتعرف؟

هززت رأسي أن نعم. أطرق رأسه وزفر زفرة حارة ثم سحب نفسا عميقا كي يسترد أنفاسه، وقال:

- عبيد الأرض وأرباب السيف وأبناء الرب، هكذا كنا. لكل منا نصيب مقدور وواجب معلوم، هكذا اتفقنا. طائفة تزرع الطعام وأخرى تزرع الأمن وثالثة تزرع الإيمان، هكذا ترعرعنا. أغدقت السماء علينا من فضلها رزقا يطعمنا من جوع، وأمنا يقينا من خوف، وإيمانا يهدينا من ضلال. طعامنا البطيخ. شرابنا البطيخ. نحن أهل البطيخ. كان الجميع راضيا بنصيبه، متفانيا في أداء واجبه. في أيام الحروب كان نصيب المقاتلين يزيد. أما في السلم فكان الجميع سواسية. لا فضل لمقاتل على مزارع أو ناسك. انقلبت الأمور رأسا على عقب بعد تعرضنا لحروب طويلة متتالية. شهدنا ويلات لا تخطر على قلب بشر. انكشفت الغمة، لكن سرعان ما تلبدت سماؤنا وغامت شمسنا وغاض ماؤنا. الحق المكتسب صار حقا أصيلا. لولانا ما بقي رزق نقتات عليه، بهذا جهروا. لولانا ما كان الرزق أصلا، بهذا أجابوا. سألنا الله الهداية والمغفرة، بهذا أسررنا. يملكون القوة في السلم كما يملكونها في الحرب، بهذا

طغوا وأفسدوا وكانوا من المعتدين. طرقات متسللة تدق علينا أبواب معبد أبناء الرب. واحد تلو الآخر انسلوا داخلين، خلف كبيرهم. في مواجهتهم عند المحراب وقفنا جميعا، حيث كبيرنا. إنها الحرب على أرباب السيف، هكذا صرخ. إنها الفتنة الواجب وأدها، هكذا همس. علينا أن نرفع رؤوسنا. كي تطيح بها نصالهم؟ أتخشون طيرانها منتصبة، فتطأطئونها على النطع؟ لسنا مطأطئين. إذن فلتكونوا محاربين. لتذهبوا أنتم! فإنا هاهنا قاعدون. غلقنا ورائهم الأبواب. أحكمنا دونهم المتاريس. ركعنا عند المحراب. كلٌ أهله بين ذراعيه، وكلٌ بين ذراعي أهله. صرخات الأقدام المتخبطة أصمت آذاننا، هرولات الحناجر الخائرة أعمت أعيننا، خفقات الرقاب المرفرفة أبكمت شفاهنا. سجدنا فوق بعضنا البعض. ظلت الصرخات والهرولات والرفرفات العاتيات تعصف حولنا سبع ليال كاملات. نضجت الجلود. واستُبدلت القلوب. عندما دوت صرخات الصمت ارتجفت أوتار أقدامنا ورحنا نهتز نحو باب المعبد خلف كبيرنا. فتحنا الباب فتح العاصي عينيه انتباها على عذاب القبر. إلى كبيرنا ننظر. إليهم ينظر كبيرنا. إلى السماء ننظر وكبيرنا. السائل الدامي يغمر وجه الأرض. قرص الشمس النازف يزحف هاربا من قريتنا. أجسامهم تطفو فوق البحر الميت، راقدة على مياهه الراكدة. إلينا ينظر. إليهم ننظر. يهبط درجتين. يتردد. ينحني. يتناول قطعة من بطيخ طافية. إليه ننظر. إليها ينظر. يلقيها من بين يديه. إلينا يلتفت. أنظروا إليهم... أتحسبونهم أمواتا؟! لا... إنهم بانتصارهم يحتفلون. هابطا درجات المعبد، اندفع. غامسا أصابعه في السائل الأحمر، انحنى. رافعا يده أمامنا، تساءل. ماذا تحسبون؟! واضعا أصابعه في فمه، تلمظ. إنه عصير البطيخ. إنهم يعومون في مية البطيخ. إلينا ينظر. إلينا ننظر. ألا تصدقون؟! سحب ملابسه من فوق رأسه. نصف عار، وقف أمامنا. سحب نفسا عميقا. سأحتفل معهم. طار في الهواء ثم غاص في البحر الأحمر أمامنا. إليهم ننظر. إلينا ينظرون. يطيرون. يغوصون. يسبحون. إليهم أنظر. إليّ ينظرون. يحتفلون. أتأرجح حتى أصل الى شاطئ البحر. أغمس أصبعي... أذوقه... أشعر بغثيان... ليس عصيرا. أنظر عن يميني. يسبحون. أغمس يدي... أرشفه... أقشعر... ليس عصيرا. أنظر عن شمالي. يشربون. أملأ كفي.... أشربه... أمتعض... ليس عصيرا. أنظر أمامي. يأكلون. قطعة بطيخ تسبح أمامي. انحني عليها. أتناولها. أتلمظ. هأنذا جالس على عتبات معبد أبناء الرب،

قدماي متدليتان تتأرجحان، تداعبهما مياه بحر البطيخ الأحمر الدافئة، بينما أشاهد مغيب قرص الشمس عن قريتنا.

تهدج صوته وصمت. سألته مستحثا أياه أن يكمل:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

فاضت الدموع غزيرة من بين عينيه خرجت الكلمات مضطربة مشوشة. بالكاد فهمتها:

- لم يكونوا يحتفلون. لم يكونوا يعومون.

ثم ظل يصرخ:

- علمنا بعد فوات الأوان. علمنا بعد فوات الأوان.

حاولت تهدأته لأسأله أوان ماذا، لكن بمجرد أن وضعت يدي على جسده سرت في بدني قشعريرة هائلة، وانتبهت من غفوتي .....

ترددت لأعوام طوال في كشف ذلك السر الذي انجلي لي أثناء تلك الرؤية. كنت أخشى ان أوسم بالجنون. ودوما كنت أقاوم نفسي التي طالما راودتني عن نفسي. لولا تلك الأزمة الصحية التي ألمت بي. عندها قررت أن أكشف ذلك السر الذي ظل مدفونا في صدري قبل أن ندفن معا في صدر الأرض. وأظن أني الآن قد بلغت مبلغا من العلم والمكانة العلمية يجعلني أهلا للتصديق، خصوصا وقد فصّلت خطوات التجربة التي قمت بها في هذا المقال العلمي. وأخيرا أشكركم على حسن استماعكم. وأنا الآن على استعداد لتلقي كافة أسئلتكم.

***

عندما استجملت الناقة

كان ياما كان يا سعد يا إكرام ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام. كان الحاج مهاود كبير البلد والكل في حمايته سوا بنت أو ولد. وكان الكل بيحبه ويحترمه وبيسمع كلمته ويطيع أوامره. يشخط الشخطة من دول يخلي الواحد يداري وشه في كمه. ويحضن الحضن من دول ينسى الواحد همه. ربنا رزق الحاج مهاود بولدين الحسن والحسين. كان الحاج مهاود فيه شيء لله كان عارف إنه هيخلف توأم فسماهم من قبل ما يتولدوا تيمنا بأحفاد الحبيب صلى الله عليه وسلم. ماكنش الحسن والحسين فلذة كبد أبوهم وبس، دول كانوا قلبه اللي بيتنطط من الفرحة وهم بيلعبوا مع العيال، وكانوا الأيد اللي اتمدت تساعده في مسكة الفاس في صهد الشمس ساعة الضهرية، وكانوا العكاز اللي اتكأ عليه عشان يتمشى تمشية العصاري بعد ما زهق من الرقدة الطويلة، وكانوا الكتف اللي شاله يوصله عشان يقابل حبيبه بعد ما أضناه الشوق، وكانوا العين اللي بلت تربته والكف اللي اتلقت عزاه. كان الحسن والحسين هما الحاج مهاود نفسه اتقسم جسمه على جسمين وورث اسمه اسمين. أي نعم الحاج فرح باولاده لكن القدر غمى عينيه قبل ما يشوف احفاده. واكْمن المحبة ده منحة من المولى تعالي ومالهاش تفسير، ربنا نبت حب زيناهم مراة حسين في قلب الحاجة سنية، لكن برضك ما نزعش من قلبها بذرة محبتها لنبوية. بس الحقيقة تتقال الحاجة كانت بتحب اولادها الاتنين زي بعض بالظبط؛ لأن الاتنين كانوا فولة واتقسمت نصين. طرح حب سنية لزيناهم شجرة كبيرة ضللت على زيناهم وحماتها، بس وقفت الشجرة العالية ده حاجز ما بينها وما بين سلفتها. ولما كانت الحاجة بتدي رغيف لنبوية تدي اربعة لزيناهم. ولما تدبح طير لنبوية تدبح نعجة لزيناهم. ولما تقول كلمة حلوة لنبوية تسمع عشرة زيها لزيناهم. ولما تبكت نبوية بكلمتين وهي لاوية بوزها شبرين، كانت تعاتب زيناهم وهي بتضحك. ولما رقدت سنية عملت نبوية خدها مداس ليها، أما زيناهم فماطلتش حتى عليها. ولما ماتت سنية عصرت زيناهم دمعتين مايبلوش كم، أما نبوية فكانت عيونها كاسات دم. وكان آخر طلب لسنية قبل ما تموت إنها نفسها تملي عينها بزيناهم واللي في بطنها، بس زيناهم مارحتش تشوفها قال خايفة من الفال. كان قلب زيناهم ياعيني مكسور لأنها زربتهم بنت ورا بنت، أما نبوية يا ولداه فكانت عينها مكسورة لأنها حتى ما فلحتش في خلفة البنات. وراحت لكل المشايخ اللي راحت لهم زيناهم. وعملت كل الأحجبة اللي عملتها زيناهم. وجربت كل الوصفات اللي جربتها زيناهم. وطافت على كل الأولياء اللي طافت عليهم زيناهم. ولما زهقت قالت تجرب تحج يمكن الحج يجيب نتيجة. المسكينة

ماكانتش تعرف الوصفة السرية اللي احتفظت بيها زيناهم لنفسها بعد ما جربت كل المشايخ والأولياء والأحجبة والوصفات وما نفعوش ولا شفعوش، وحتى كانت هتروح تحج برضك، لكن ربنا هداها في آخر لحظة قبل السفر للوصفة الأكيدة. ربنا بعت لها شلبية مراة عوضين الغفير، واللي نصحتها نصيحة خبير. وهي إنها تخطي على عرسة ميتة سبع مرات رايحة جاية وهي بتكرر تعاويذ سفلية. واتحققت النتيجة في الحال وأخيرا كبرت بطن أم العيال. ورجعت الحاجة نبوية من الحج لكن بطنها فضلت زي ما هية....لأ.... يمكن خست بسبب السفر شوية. وفي يوم من الأيام وبعد ما مر على رجوع الحاجة نبوية شوية أيام، اتكفت زيناهم على وشها ولحقتها شلبية اللي كانت واقفة جنبها. وجريت عليها الحاجة الجديدة وسندتها هي وشلبية لحد أوضة النوم. وصرخت شلبية إن ربنا يسترها على اللي في بطنها، بس زيناهم زغدتها في جنبها. وساعتها فهمت نبوية حيلة سلفتها وفهمت إنها رابطة معدتها لأجل ما تخفي اللي في بطنها، بس ربنا أراد إنه يفضح سرها. فضلت نبوية طول الليل تشيل وتنكت في نفسها وهي نفسها تعرف أيه اللي في بطن زيناهم. فجأة وبعد صلاة الفجر ربنا فتحها عليها بالحل. مالت عليها بحنية ساعة الصبحية وبستها في خدها وفي راسها وربعت رجلها وقعدت جنبها على السرير وهي بتقولها "قال إيه خير اللهم اجعله خير حلمت بالحسين رضي الله عنه بيجر جمل وبيدخله بيتنا سألته يا حفيد النبي أيه الجمل ده رد على وقال وهو بيبتسم ده الجمل اللي بتدوروا عليه من زمان وأنا جيبتهلكم أهوه، وفجأة هبيت من النوم على صوت الآذان بيقول الله أكبر الله أكبر لصلاة الفجر قولت يبقى أكيد ده رؤية مش حلم وقلت أكيد اللي في بطنك ولد، ربنا يجعل الرؤية ده من حدك ومن نصيبك يا زيناهم يا بنت نفوسة" ..... زاغ ولد عين زيناهم وهو بيدور على مهرب "اسكتي يا اختي مش ديك النهار روحنا للدكتور في المركز وعمل لي أشعة وقال لي وهو بيضحك - اللي إن شالله تخفي سيرته من على وش الدنيا - إني حامل في عرسة مش في فار"..... "وماله يا اختي كل اللي يجيبه ربنا كويس، هو حد لاقي، احمدي ربنا"..... ابتسمت نبوية لما حست بخيبة زيناهم القوية. وبعد شهور ابتسمت زيناهم لما حست بخيبة نبوية القوية. ولما جه الولد وجه الأهل والحبايب علشان يباركوا ما كنش ليهم سيرة غير معجزة الحاجة نبوية اللي رؤيتها قلبت البنت لولد، وكانت رؤيتها أصدق من أشعة الدكتور. وفي يوم السبوع كان الكل فرحان وبيغني للمولود الجديد أغنية السبوع:

محلى عريسنا الطاير صيته، لما يطير بجناح جلابيته

شهم مفرّد جوا اللفة، قبض الشمس ف قبضة أيده

لما جانا غراب البين ينقر منقاره الخدين

صلب الضهر عريسنا الحيلة كل قلوبنا صبحت بيته

جانا جملنا جمل الزفة، جاي تتمايل فوقه الخيمة

بعد ما طالت غيبة شمسه، جانا ربيعنا يزيح الغيمة

وتد الخيمة عريس الزين، بدر الورد على الجانبين

اسم النبي يحرس كده رسمه، والماشاء الله مطوقة جيده

جانا الواد من بعد سونار خلى عدانا يباتوا في نار

يا ام عريسنا افرحي واتهني دقة قلبك طبلة وطار

صدق ربنا حلم الحاجة وجبر كسرة الكفين

واللي يرمي حموله على ربه، ربنا يروي عطشة غيطه

وعاشوا في تبات ونبات بعد ما خلفوا صبيان وبنات، وتوتة توتة فرغت الحدوتة، حلوة ..... ولاملتوتة.

الدور الـ 17 معاك

متطلبات سابقة Prerequisite: لا يقرأ هذه القصة إلا من كان حاصلا على شهادة TOEFL بدرجة 500 على الأقل من إحدى الجامعات المصرية أو أحد المعاهد اللغوية المعتمدة. وتقبل كذلك شهادة IELTS.

***

اختلطت ضربات قلبه الفرحة بضربات قلبه المضطربة، فعلى الرغم من القلق الشديد الذي اعتراه إلا إنه شعر بسعادة غامرة لأنه أخيرا سيعمل في مجال تخصصه وأخيرا سيجد ذاته التي طالما بحث عنها..... ابتسم لنفسه في سره وقد أحس إنه بالغ وتقمص شخصية أحد أبطال التراجيديا اليونانية التي كان يدرسها في الكلية، لكن هذا زاد من سعادته وضاعفها. لكن ظل السؤال الذي يحيره هل كان يجب عليه إخبار أمه بأمر هذه المقابلة أم إنه أحسن صنعا أنه لم يخبرها. مظهر ذلك البرج الإداري الفخم الذي تحتله الشركة يجعله يجزم بإنه أحسن صنعا، ولكنه مع ذلك عاد ليطرح على نفسه السؤال مرة أخرى ليجزم لنفسه مرة أخرى وهكذا ظل السؤال يتردد ما بين الطرح والجزم دون توقف. طال انتظاره للأسانسير وكلما مر الوقت تباطأت ضربات قلبه الفرحة وتسارعت ضربات قلبه المضطربة. وفجأة توقفت ضربات قلبه بنوعيها لتتسارع دقات قلبه بعنف عندما خطرت إلى جواره. لا يعرف ماذا ابتلاه عندما رآها، فقد صرعت قلبه وخطفت عينيه وسلبت مهجته وأسرت البقية الباقية من حواسه، وشعر بأنفاسه تتسارع من جراء تلك المعركة المشتعلة داخله. لا يدري لم فعلت فيه ما فعلت رغم أنها تتصف بكل ما لا يريده ولا يعجبه. فهو يحب الطويلة وهي أقرب للقصر، يحب الوافرة البدن المدملكة أما هي فظهرها يمكن قياسه بشبر واحد وغير مدملكة بالمرة، كما إنه يعشق البشرة النحاسية أو البيضاء بياض اللفت المنقوع في البنجر، أما هي فكان بياضها أشبه بلحم سمك البلطي وبشرتها تعلوها قشور تشبه قشور سمك البلطي، كانت صارمة الملامح وزاد من صرامتها وجديتها تلك النظارة التي تعلو أرنبة أنفها المستقيم وكذلك حاجبيها المذججين ووجهها الخالي من المساحيق، وشعرها المعقوص على هيئة "ديل حصان". وصل الأسانسير ركبته فتبعها نظر إليها عامل الأسانسير بشنبه الكثيف وابتسم فردت عليه:

- الدور الـ 17

أدار شنبه وابتسامته إليه فهز رأسه هزة لم يفهمها هو شخصيا ومع ذلك فهمها عامل الأسانسير. عندما وصل الأسانسير هبطا معا ولكنه تراجع قليلا حين اكتشف أن الأسانسير يفتح داخل الشركة ذاتها وليس في طرقة تفصل الشقق عن بعضها البعض كالمعتاد. ومع ذلك عندما لمحها تسير واثقة الخطوات استلهم بعضا من ثقتها وسار خلفها. لمحها ترمي حقيبتها على أحد الكراسي القريبة وتندفع لتحتضن صديقتها التي تقف وراء المكتب.

- حمد لله على السلامة

حينها خمن أنها تعمل في الشركة. توارت داخل إحدى الحجرات هي وصديقتها وهما تواصلان حديثهما، فتجول بنظره في أنحاء المكان. رأى بعض الشبان والشابات ما بين متحاورين وصامتين ولاعبين في هواتفهم الجوالة.

- أنا جاي بخصوص الوظيفة
- لما تيجي الأنسة هتاخد اسمك علشان تدخل المقابلة

جلس على أقرب الكراسي إليه، وهو مستمر في تجواله. منظر الشركة الغريب يذكره بالشركات في الأفلام الأجنبية. تسلل بنظره إلى تلك القاعة الواسعة والتي يحجبها عن الأنظار باب زجاجي يشف ويصف كل ما فيها، رأى كما كان يرى في الأفلام الأجنبية بوابة الكترونية لكشف المعادن، وجهاز للتعرف على البصمة ظلوا يستخدمونه للدخول والخروج، ورأى القاعة الكبيرة مقسمة لحجيرات صغيرة تفصلها جدران زجاجية، ورأى اثنين من الموظفين يشبهان الأمريكان تماما بشعرهم الأصفر وعيونهم الزرقاء يتجهان للخروج من القاعة وهما يتبادلان الحديث، ولكن عندما خرجا اهتز قلبه بعنف وشعر بسيل من العرق يهطل من جبهته ليسيل على صدغه، وذلك رغم برودة الجو التي يبثها جهاز التكييف، وتوقف قلبه عن الدق والضرب وتوقفت أنفاسه عن الخروج والدخول واتسعت عيناه وهو يحدق فيهما غير مصدق نفسه ... إنهما بالفعل أمريكيان ويتحدثان لكنة أمريكية تستطيع أذنه التعرف عليها بينما يفشل لسانه في ذلك. ألقيا على بيضاء السمك بعض الكلمات أثناء خروجها من حجرة مجاورة فابتسمت مرددة بعض العبارات ردا عليهما بلكنة تفوق في أمريكانيتها أمريكانيتهما شخصيا، ثم عادت إلى الحجرة مرة أخرى ومضيا هما في طريقهما. عندها أخذ يتجول بنظره بين المتقدمين عله يجد السلوى والتشجيع، لكنه لم يجد أي عون من الصامتين أو اللاعبين فسرح بأذنيه دون عينيه بين المتحاورين ولكنه ما لبث أن صم أذنيه وخفض

عينيه حتى لا يسمع ولا يرى المزيد، وذلك بعدما سمع طرفا من حديث ذلك الأخ منكوش شعر الرأس أجدب شعر الصدر وهو يحكي لزميله أجدب شعر الرأس منكوش شعر الصدر عن رحلته قضاها عند أقربائه في اسكوتلندا، وكيف استمتع بها فأمن صديقه الأجدب المنكوش على كلامه بإنها فعلا من أجمل البلاد التي زارها.

- أنا كان نفسي أروح السنة ده تاني، بس قلت لازم الواحد يعود نفسه على الشغل من دلوقت قبل التخرج
- أنا برضه قلت نستفيد بالسنتين اللي فاضلين في الجامعة في التدريب على الشغل الحقيقي، لحسن الواحد يتخرج ويلبس في الشغل وش كده، فيخربها

حينها خرجت هي وصديقتها مرة أخرى، تمنى أن تنظر إليه هذه المرة ولكن دون جدوى، دخلت وتركت صديقتها تجلس خلف مكتبها

- كابتن
- أمممممممم
- الانسة هتاخد بياناتك

تذكرت ركبتاه أيام المدرسة عندما كانتا تصطكان عند أي سؤال صعب يوجه إليهما؛ فسار بسيقان مرتعشة وأدلى لها ببياناته، فأنقذته وطلبت منه الانتظار، فعاد وارتمى على مقعده وهو يظهر تماسكا يفتقر إليه بشدة. عندما خرجت الأميرة مرة أخرى كاد أن يطير إليها ليقبل قدميها أن تنظر إليه، فهو لا يريد أن يخرج من هذه المعركة صفر اليدين مهزوما في كل الجولات. فهزيمة المناكيش الأجادب تحتاج أن يكون له أقارب في اسكوتلندا، ومعركته مع الأمريكان تحتاج منه أن يتخفى بشعر أشقر وعيون ملونة ولكنة أمريكانية، أما انتصاره في معركتها فلا يحتاج سوى أن تنظر إليه فقط لا غير يبدو إنها سمعت توسلاته فقد نظرت إليه وابتسمت وأقبلت عليه وهي تمد يدها إليه.. لكنه لم يمد إليها أي شيء سوى نظراته

- أنا أسفة ممكن الشنطة بتاعتي، أصلي نسيتها على الكرسى....ميرسي

مد إليها الحقيبة، فأخذتها ودخلت الحجرة مرة أخرى.....

استاذي اتفضل أنسة ميادة هتبقى مع حضرتك كمان شوية

بعد قليل جاءت ميادة!! كانت هي ميادة!!!!! نعم كانت ميادة رغم صلابتها وجديتها. جلست أمامه ترتسم عليها آيات الجدية وهي تتحدث بلهجة عملية. بدا من نظراتها وكلماتها أنها لا تذكره، بل لا تذكر موضوع الحقيبة بالكامل، بل بدا إنها ليست هي صاحبة الحقيبة التي كان يخاطبها في الخارج منذ قليل. ألقت عليه سؤالا خرج بأحرف مدغمة ولكنة أمريكية، فاضطر لكي يفهمه أن يحول أحرفه إلى أحرف مظهرة، ويترجم لكنته إلى اللكنة المدرسية التي يألفها، وعندما أنهى عمله وجد وجهها الناحل ينتفخ وحاجباها ينتفشان وبشرتها البيضاء تتحول إلى بشرة سمراء مشققة تشبه أرض الصعيد العطشى في ظهيرة أغسطس، وقد خرج السؤال من بين شفتيها بصوت أجش وبلهجة اعتادت تعطيش كل الحروف، وهي تنبر جميع مقاطع كل الكلمات

- Introduce yourself؟

تحولت فجأة أمامه إلى الأستاذ عبد الشافي الذي كان آخر من طرح عليه هذا السؤال، تذكر ارتباكه أمام عبد الشافي أثناء تذكر للإجابة، فخرجت ذات الأجابة التي رد بها على عبد الشافي وقد شابها نفس الارتباك الذي شابها أيام عبد الشافي. بعد أن أنهى أجابته المطولة التي حرص فيها أن يتجنب الإجابات المختصرة short answers كما علمهم عبد الشافي، رآها تنظر في سيرته الذاتية وقد كون حاجباها علامتي استفهام كبيرتين متقابلتين توسطهما أنفها المستقيم وكأنه علامة تعجب مقلوبة وسألته كيف لم يورد في سيرته سوابق الأعمال والخبرات، ابتسم وبلع ريقه، وأخذ يفتش في قاموس مفرداته، والذي لا تزيد صفحاته عن صفحات كتاب "تعلم الإنجليزية في أربعة أيام"، عن الكلمات المناسبة، وعندما وجدها أخذ يبحث في أجروميته للغة الإنجليزية حتي يصوغ تلك الكلمات في جملة صحيحة، وعندما انتهى من البحث والتفتيش وكادت أن تخرج من بين شفتيه جملة

- I searched for a job since graduation

تذكر أن الماضي البسيط لا يوضح التكرار والمدى الزمني الذي شغله الفعل فرأى أن يعيد الصياغة مستخدما المضارع التام have/has + p.p وبعد أن كاد أن ينتهي من الصياغة المعدلة، تسائل هل سيعكس المضارع التام ذلك الجهد الذي يبذله في البحث، وكيف يتنقل بين صفحات

الجرائد عند طارق الحلاق متسلحا بقلمه راسما الحلقة تلو الحلقة حول الوظائف المناسبة وغير المناسبة، وبعد ذلك يبدأ في اليوم التالي الدوران في تلك الحلقات الواحدة تلو الأخرى، هل سينجح المضارع التام في رسم صورته وهو يستعد لليوم التالي متسلحا بفرشاة أسنانه التي يجلو بها صفحة فمه حالقا ذقنه بشفرة الورقة الشهيرة ليتأكد من نعومتها، هل سيشعر المضارع التام بنفس الخجل وهل سيطأطأ رأسه نفس الطأطأة وهو يقبل على والده مادا إليه يديه كي يحصل على فلوس المواصلات للذهاب للمقابلة، هل سيتفهم المضارع التام ذلك القلق المتفائل الذي يجثم على صدره قبل كل مقابلة ويكاد يخنقه ولا ينزاح من عليه سوى ليفسح مجالا لخيبة الأمل كي تحتل مكانه بعد أن ينهي المقابلة، هل سيحس المضارع التام بما كان يحس به من مهانة وهم يصرفونه ويخبرونه في نهاية المقابلة بأنهم سيتصلون به في أقرب فرصة ويتمنون له التوفيق. تيقن إن المضارع التام سيفشل فشل ذريعا في كل هذا فقرر استخدام المضارع التام المستمر have/has + been + v + ing عله ينجح فيما فشل فيه سلفه. وفي النهاية بعد أن خرجت الجملة، خرجت يتنازعها الماضي والمضارع بل وألقى المستقبل البسيط بعضا من ظلاله عليها. نظرت إليه نظرة مشفقة وقد شعرت بارتباكه الشديد فسألته عن سببه، أخذ يفتش ويبحث وسعد بشدة عندما لاحظ كلمة " Dizzy" والتي كان قد دونها على هامش قاموسه ولم يثبتها فيه حيث لم يستخدمها من قبل، وشعر إن الوقت مناسب لاستخدامها:

- Actually, when I saw all the guys here speaking English so fluently, I felt dizzy

ابتسمت، واستكملت طرح الأسئلة واستمر هو في البحث والتفتيش والصياغة، وعندما انتهت قالت وهي تبتسم:

- شكرا جدا، عموما هنتصل بحضرتك إن شاء الله في أقرب فرصة، وبالتوفيق.

نهض وسار نحو الباب مطأطأ الرأس، ولكنه توقف وقد تذكر تلك النظرة المشفقة فخرجت كلماته بلا عناء البحث والتفتيش وخرجت دون ارتباك، بل خرجت منغومة متراقصة:

Actually; I felt so dizzy when I saw...you ….. speaking English so fluently

تحولت مرة أخرى إلى الأستاذ عبد الشافي وقالت بصوته الأجش، وبلكنة تعذب كل الحروف والمقاطع

- على فكرة أنا خريجة مدارس عربي، ومتخرجة من نفس كليتك بس بعدك بخمس سنين، بالتوفيق يا أستاذ

زادت طأطأة رأسه، وجرجر ساقيه وبقايا كرامته إلى باب الأسانسير، وهناك ظل يحمد الله أنه لم يخبر والدته بشأن تلك المقابلة، ولكنه عاد وفكر أنه أخذا بالحيطة عليه أن يخبرها في حال أن اتصلوا به، ولكن الإحراج الذي يصاحب تفاصيل كل مقابلة كان يصده عن إخبارها، وبين الحيطة والإحراج أخذ يتردد السؤال في جنبات رأسه، وعندما انفتح باب الأسانسير استقبلته ابتسامة أبو شنب، دخل ورد عليه دون أن ينظر إليه:

- الدور الأرضي.

الوحدة

ركعتُ أمام ساحر القبيلة ومددت يدي لأتناول منه الترياق. رغم أني أعد من الجنود المبرزين في جيشنا. لم أهتز قط أمام ضربة سيف أو رشقة رمح. وأتقدم الصفوف عند الهجوم على أعدائنا من القبيلة البيضاء. لم أنكص على عقبي أو أتراجع في يوم من الأيام. رغم ذلك راحت يدي ترتعش وأنا أقرب الترياق من فمي وأتجرعه. الغثيان هو الشعور الغالب على كافة المشاعر المقيتة التي احتسيتها مع ذلك الترياق اللعين. لم يكن الطعم أو الرائحة هما السبب في الغثيان، بل التحول الذي حاق بي بعد لحظات من احتسائي للترياق. فقد راحت بشرتي الحمراء الدموية رائعة الجمال تشحب تدريجيا حتى صارت كبشرة الموتى وقد استحالت إلى بشرة بيضاء. وقد انسحب ذلك التحول من أطراف أصابعي العلوية والسفلية إلى باقي جلدي، حتى دثرني ذلك الكفن الأبيض البارد. كانت تلك هي الخطة التي تفتق عنها ذهن كبير قوادنا لكي نكسر شوكة الجيش الأبيض.

بعد سلام دام لأعوام طوال، رحنا نتقاتل لعقود لا تعد ولا تحصى. نحن القبيلة الحمراء ذوو البشرة الحمراء والقلب الأحمر والدماء الحمراء لون الحياة. أما هم فالقبيلة البيضاء ذوو لون الموت البارد. سعى حكامنا لتحقيق الوحدة معهم بالسلام والسياسة لكنهم أبوا إلا الحرب. حاولوا إقناعهم بأن الوحدة أساسها التكامل. لكنهم لم يرضوا سوى بالتشرذم، رافعين شعار التجانس هو أصل الوحدة. دارت المعركة بيننا لسنين، وكدنا أن ننتصر عليهم، لولا وحدة المشاة الشرقية تلك التابعة للجيش الأبيض. وقفت تلك الوحدة حجرة عثرة في سبيل تحقيقنا للوحدة. فقرر قادتنا أن يدسوا أحد رجالنا بين صفوفهم، وكنت أنا هذا الأحد.

ولكي أتماهى بين صفوفهم وجب عليّ تغيير بشرتي من الأحمر إلى الأبيض باحتساء ذلك الترياق الذي أعده ساحر قبيلتنا. بعد أن تماسكت قليلا رأيت الساحر يرفع يده بقنينة صغيرة:

- ما هذه؟
- ترياق آخر لتبييض القلب. ساعة الصفر هو عندما ينتهي مفعول ترياق القلب. لكن احذر فقلبك سيتحول إلى أصله قبل جلدك فعليك بالانتهاء سريعا.
- أحذر مم؟

راح يهز رأسه يمينا ويسارا وهو يمط شفتيه.

- متى يتحول؟

راح يهز رأسه يمينا ويسارا وهو يمط شفتيه. تناولت الترياق وفرائصي ترتعد وقد تضاعف داخلي الشعور بالغثيان.

لم تكن خطة إدخالي الى الوحدة بأسهل من خطة التحويل. فلا يمكن ببساطة أن أذهب إلى الوحدة القابعة هناك وأطلب منهم إدخالي إلى قلعتهم الحصينة بهذه البساطة. لذا وجب أن نجعلهم هم يدخلونني بأنفسهم إلى هناك. لذا وقفت أنا وصديقي - أو من كان صديقي قبل أن أتحول إلى اللون الأبيض- بين الأحراش القريبة من قلعتهم الحصينة في وقت تمشيطهم المعتاد للمنطقة المحيطة بالقلعة. رفع صديقي خنجره وغيّبه حتى مقبضه في صدري ثم تركني غائبا عن الوعي غارقا في دمائي وقد كان آخر وجه رأيته هو الوجه الأحمر الغاضب لمن كان صديقي.

عندما استفقت أصابني الهلع وقد كان كل ما حولي أبيض البشرة حتى الجدران، يبدو أن ثمة بقايا من الدم الأحمر يسري في بدني. ثلاثة وجوه باسمة ظلت تتطلع إليّ في شغف وأنا أعتدل في مكاني.

- صباح الخير يا رقم 10.

وحدات الجيش الأبيض تستخدم الأرقام بدلا من الأسماء للتعارف بين الجنود وقد اختار لي قادة جيشنا رقم 10 على اعتبار أنه الناجي الوحيد من جنود السرية التي أبدناها من أسبوع مضى أثناء هجوم لها على أحد مواقعنا المهمة. التفوا حولي وهم يسألون بشغف عن تفاصيل الهجوم الذي قدناه وكيف نجوت من الموت. رحت أقص عليهم أدق تفاصيل الهجوم كما أخبرني بها قادتي، وراحت الدموع تهطل من عينيّ مدرارا وأنا أبكي أصدقائي الذين قضوا نحبهم في ذاك الهجوم. اقتربوا مني ففزعت وتراجعت إلى الخلف خوفا من برودة الموت التي ولابد ستصدر عنهم فتجمدني في مكاني ميتا. هدأوا من روعي واحتضنني ثلاثتهم. تعجبت كثيرا من ذلك الدفء الذي سرى في بدني وقتها. تحسست صدري لأطمئن على جرحي.

- لا تخف رقم 70 (وأشار إلى يمينه) طبيب حاذق. اخترع ترياق يخلطه بدماء البشر سيعوضك عن دمائك التي فقدتها. والآن تسري في عروقك دمائنا نحن الثلاثة، فقد فقدت كمية كبيرة من دمائك.

حاولت أن أشعر بالغثيان وأنا أتخيل دماءهم تسري داخلي، لكني فشلت. عندما ارتميت على ظهري محدقا في ذلك االسقف الأبيض الذي يواجهني كنت أعلم أني لن يغمض لي جفن حتى الصباح، لكن الغريب أني لم أشعر إلا ونور الصباح الأبيض يتسلل إلى داخل الحجرة فيوقظني بنعومة. ظللت راقدا على سريري لعدة أيام أتطلع طوال النهار إلى ذلك البياض المحيط بي. لا أعرف هل السبب هو ذلك الترياق الذي أسقاني أياه ساحرنا، أم وجودي ليلا ونهارا في ذلك المكان هو ما جعلني أشعر بألفة مع هذا اللون القاتل. لم يعد الغثيان هو الشعور الذي ينتابني عندما ألمح بياضا في أية جهة أوجه عيني إليها. كنت أظل بمفردي حتى ينتهون من تدريباتهم الصباحية وعندها يعود زملائي الثلاثة معهم بعض الزملاء الآخرين الذين يعودونني ونجلس جميعا على الأرض لتناول الغداء فنظل نتبادل الحديث ونتضاحك حتى إنتهاء الغداء. وأيضا أثناء الليل عندما نأوي جميعا إلى فرشنا كنا نظل نتبادل الأحاديث حتى نغرق في النوم. وعندما يغطون جميعا في النوم، كنت أنتصب في مكاني وأنقّل عيني بينهم. أتأمل ذلك العقد الذي يلفه رقم 30 حول رقبته والذي يظل متعلقا به حتى أثناء نومه، فقد صنعته له ابنته في آخر زيارة له لأسرته قبل أن يعود إلى المعسكر. أما رقم 70 فيظل ممسكا بمسبحته ذاكرا معبودنا الواحد حتى يروح في النوم، حتى أثناء النوم لا يتوقف فمه عن التمتمة. وعندما أتوقف عند رقم 9 أتأمل نفسي في تلك المرآة المعلقة فوق رأسه. لم أعد أكره بشرتي البيضاء. لم أعد أراها على هذه الدرجة من الشحوب التي ظننتها لأول وهلة. صرت معتادا على هذه الهيئة. فأظل أتأملها حتى يغيبني النوم.

- ظلت الأمور على هذه الوتيرة. وذات يوم أثناء تناول الغداء جرحت نفسي وسالت قطرات دمي الحمراء أمام الجميع. بهت وغام وجهي. كنت أظن الترياق سيحول دمائي إلى اللون الأبيض كدمائهم لكنها مازالت كما هي. تصفحت وجوههم فوجدتهم جميعا ينظرون تجاهي وقد عقدوا حواجبهم، بينما نهض رقم 70 ليحضر دهانا ما راح يدلك به الجرح ثم ضمد الجرح وعادوا لتناول الطعام مرة أخرى كأن شيئا لم يحدث. عجبا كيف لم ينتبهوا لاختلاف لون دمائي عنهم. حمدت الله أن أمري لم ينكشف. العجيب أن اعتيادي على المكان تحول

بعد قليل إلى سعادة به وأنسا بصحبة من فيه. حتى جاء ذلك اليوم غير الموعود. تحرك فيه قلبي وكأنه يتمطى داخلي. عندها انتصبت في منتصف الليل ورغما عني تناولت ذلك الخنجر المعلق فوق رأسي. اقتربت ببطء من رقم 30 فلمحت ذلك العقد الملفوف حول رقبته فأشفقت على ابنته. فقررت البدء برقم 70 فوجدته يتمتم بأذكاره فخشيت من معبودنا. وعندما توقفت أمام رقم 9 رأيت نفسي في المرآة، كنا نشبه بعضنا البعض، فكنا نرتدي نفس الملابس ولنا نفس البشرة ويسبقني برقم واحد، فأشفقت على نفسي. قررت أن ابدأ بباقي الوحدة. طفت عليهم فردا فردا أذبحهم كالنعاج. العجيب أن دماءهم كانت حمراء كدمائنا وليست بيضاء كما كنا نظن. عندما كنا نذبحهم في المعركة لم نكن نلاحظ الفارق فكنا نظنها دماءنا فقط هي التي تسيل على الأرض أنهارا. عندما عدت إلى حجرتي كانت يداي حمراوتين وكان قلبي قد تحول بالكامل. ففصلت رأس رقم 30 ثم 70 وفي النهاية رقم 9. وعندما انتهيت أيقنت أني قد قضيت على جميع الجنود البيض في الوحدة فلم يبق منهم أحد. لم يبق منهم سوى ذلك الجندي الأبيض الذي يطل علي بوجهه القبيح من داخل المرآة المعلقة فوق رأس رقم 9. ألقيت الخنجر من يدي وانقضت يداي الحمراوتان نحو رقبتي البيضاء تريد خنقها حتي تفيض روحي. فررت من أمام المرآة إلى رقم 70 أستحلفه بأذكاره أن ينقذني من هاتين اليدين، لكن فمه كان قد توقف عن التمتمة. زحفت نحو رقم 30 مستحلفا أياه بعقد ابنته الذي يطوق رقبته لكني لم أجد عقدا ولا رقبة. زحفت إلى ركن الحجرة هاربا من قاتليّ. فجأة وجدت نفسي محاصرا. وجدت يدين حمراوتين بلا جسد، وجسد أبيض بلا يدين أو قلب. وبينما راحت اليدان تعتصران رقبتي حتى آخر قطرة هواء في صدري، رحت أتلفت بحثا عمن يساعدني لكن لا حياة لمن تبحث عنهم. وراحت روحي تفيض من جسدي وأنا أشعر بالانقسام وبالعجز وبالوحدة.

الرجل الأبيض ذو الأصابع الزرقاء

بسم الله الرحمن الرحيم

نستفتح الله القوي المتين، والذي لا تخطئ نعمائه مقصدها من خلقه أجمعين. حامدا إياه على الستر فهو الستار الحليم.

أما بعد،

بعد أن خلّصنا المولى الجبار من ظلم ذلك الملقب بمغثّمر الغدار، والذي سام شرا البلاد والعباد، فكان مصيرهم البوار والكساد، ولي مولانا السلطان أدهم بن مهران أمر البلاد، فانتصب أمام الشر كالنجاد. ورغم أنه في طور الصبا، إلا أن مولانا السلطان أدهم بن مهران كان أرشد من حكم البلاد وأعقل من اعتلى كرسي السلطنة.

وقد بلغ من حكمته ورشده أن جمع حوله العلماء والحكماء والأدباء بدلا من الراقصات والندماء. فكان يلتئم شملنا كل يوم بعد صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء. وكنا نتدارس مسائل الفقه واللغة والرياضيات والمنطق وكل علوم الأسبقين. ونتناقش في أفكار الزنادقة والمؤمنين.

ورغم أن مولانا لم يكن له من أي ذلك نصيب، إلا أنه كان يستمع إلينا وقد أبدى اهتماما يشي بحسن القريحة وسرعة البديهة. لكنه ذات ليلة استوقفنا جميعا وقال

- منذ أن كنت في المهد كنت أسمع عن سلطان قديم يدعى السلطان ذو الأصابع الزرقاء، لكني لا أعرف عنه حديثا، فهلا حدثتموني عنه.

رحنا نتبادل النظرات وقد خجلنا أن نتطرق في مجلس العلم والعلماء لحكايا الجهلة والدهماء. ولكن لصغر سن مولانا أدهم بن مهران وجدنا أن الحكايات هي أجدى وأنفع للتسرية عنه، فرحت في كل ليلة أحكي له طرفا من تلك الحكاية. وبعد عودتي من قصر مولانا السلطان كنت أخط كل ما دار في تلك الليلة بيدي حتى أتممت تلك الليالي ثماني ليال كاملات. وها هو بيانها.

الليلة الأولى

أشرق وجه صيلانو[10] وهو يسمع صرخات توأميه من زوجته سيرانا[11] داخلها. الأول ذكر اسمه ميرانو[12]، والثانية أنثى اسمها بيسانا[13]. كان التوأمان ملتصقين، ولم تكن لتعرف أين ينتهي الأول وأين تبدأ الثانية. ولأن سيرانا كانت تخشى على طفليها من حروب الآلهة التي لا تنتهي، ومكائدهم التي لا تنفد احتفظت بهما داخلها. يلعبان تحت عيني أبيهما صيلانو طوال النهار. وعندما يدركهما التعب وتقبّل هيدانا[14] أعينهم، تفرد سيرانا جناحيها فوقهما لتحجب شعلة صيلانو عنهما حتى لا يفسد ضوء شعلته وهو يتفقد أرجاء مملكته عليهما لعبهما مع ابني سيرانو[15] الطيبين[16].

لم يختلط ميرانو ولا أخته بيسانا سوى بأبناء كونسو وهيدانا وهم مخلوقات أثيرية أقرب إلى الخيال منهم إلى الحقيقة. ورغم أن نشئتهما كانت واحدة إلا أن ميرانو وبيسانا كانا مختلفين تماما عن بعضهما البعض. فبيسانا كانت هادئة رصينة أما ميرانو فكان شديد الرعونة ومتقلب المزاج. كثيرا ما تعرضت بيسانا لموجات غضبه المتتالية، إلا أنها ورثت عن أمها قلبها الصافي وحنانها. فكانت تصبر على غضبه وتحاول احتوائه قدر استطاعتها. وعندما كانت غضبة صيلانو الأب تشتد على ابنه، كانت بيسانا تتضرع إلى والدها في عليائه أن يرحمه وأن يحنو عليه، فكان يجيب ابنته إلى طلبها.

وعندما شب ميرانو عن الطوق لم يعد في الإمكان احتواء نزواته وشهواته. وحدث ذات ليلة أن استبدت الشهوة بميرانو فألقت بخمار ثقيل على عقله وعينيه فلم يشعر بنفسه إلا وقد غشي بيسانا بمائه، فراحت تصرخ مستغيثة بأبيها وأمه، إلا أن دلهاماسو[17] عدو أبيها اللدود ومنافسه على قلب أمها أحاط بهما فأصم الآذان وأعمى العيون دونهما. وعندما أطل صيلانو في الصباح على بيسانا وجدها منطوية على نفسها، تلملم أطرافها بعيدا عن ميرانو، وقد اختلطت دموعها بدموع أمها حتى صارت أنهارا خددت وجه بيسانا النضر.

---

10 آله الشمس
11 آلهة السماء
12 آله البحر
13 آلهة الأرض
14 إلهة النوم
15 إله السكينة وهو زوج هيدانا
16 ابنا سيرانو الطيبان هما فايونا (النوم الهادىء الخالي من الأحلام)، وكونسو (الأحلام السعيدة)، أما ابنه الشرير فهو خونو (الكوابيس).
17 إله الظلام

فجأة أوقفني مولانا أدهم بن مهران بإشارة من يديه وعندما توقفت سألني

- كيف يمكن أن يحدث هذا وميرانو وبيسانا من بطن واحدة؟

بهتنا جميعا من السؤال. كيف لم ننتبه من قبل لما انتبه له مولانا رغم صغر سنه. فانصرفنا ليلتها جميعا مطأطئ الرؤوس، خجلى من عدم قدرتنا على إجابة سؤاله.

الليلة الثانية

عندما عدت في الليلة التالية كنت قد راجعت جميع كتبي وكل ما طالته يداي من صحاف ورقوق، وقد انتهيت من بحثي إلى إجابة شافية لسؤال مولانا.

- كما تعلم يا مولاي أن جميع ما وصلنا من أخبار السابقين كان بلسان غير لساننا، فيبدو أن المترجمين قد وقعوا في أخطاء فادحة في ترجمة تلك النصوص القديمة. لكن لأن هذه الحكايات كانت تروى بهذه الطريقة فسأضطر إلى إكمال الحكاية بنفس الأخطاء، وإن كنت أتعهد أمام مولانا وأمام الجميع بأن أقف نفسي على تنقيح تلك الترجمات ومقابلتها بالأصول حتى نخرج بحكايات تتفق وصحيح الشرع وما درجنا عليه من أخلاق.

ثم استكملت سرد الحكاية.

عندما علم صيلانو بفعلة ميرانو أحمرت عيناه واستشاط غضبا وكاد يفتك به، لولا أن رأى أن عقابا أبديا سيكون أشد وطأة عليه من الفناء. ففرض عليه أن يتجرع مونايو[18] حتى تمتلئ بطنه ليتعذب طوال عمره بظمأ لا ترويه مياه الدنيا.

وعندما جاءت ذرية بيسانا من ميرانو، طغى على بعضهم صفات ميرانو فاتسموا بالنزق والغواية وكانت أنصافهم السفلية عبارة عن زعانف كزعانف الأسماك وقد لقبوا باسم ميرانايا، وقد ألقتهم بيسانا في بطن أبيهم ليبتلعهم. أما البعض الآخر فقد جاء أقرب إلى صفات بيسانا من حيث الرصانة والهدوء وكانت أنصافهم السفلية سيقانا ولقبوا باسم بيسانيا. وقد عزم ميرانو وأبناؤه على غواية أبناء بيسانا انتقاما منهم بسبب عقاب صيلانو. أما بيسانا فقد ضمت أبناءها إلى صدرها وراحت تبكي، فمسح أبناؤها دموعها، وقطعوا على أنفسهم عهودا غليظة بأنهم لن يقتربوا من

18 الملح

ميرانو وذريته إلى نهاية الزمان، فابتسمت بيسانا وضمتهم إليها في حنان. وقد أهدت سيرانا ماهينا[19] لابنتها بيسانا وأحفادها ليقيهم غدر ميرانو وذريته في الليالي الظلماء.

حافظ أبناء بيسانا على وعدهم لأمهم لقرون طويلة. ولكن لأن البيسانيا تسري في دمائهم رغما عنهم قطرات من ماء ميرانو. فقد ورث نيما هذه القطرة عن أبيه. ورغم أنه ظل لسنوات طوال يكبح نزواته، ويعود الفضل في هذا إلى أخيه الأكبر حيجانا والذي كان يرده كلما ندت عنه أية بادرة من بوادر النزق والرعونة. لكن هذا لم يدم طويلا فقد ظلت تلك النطفة من الفضول والتحدي تنمو داخل نيما حتى راحت تتحكم بعقله وجسمه، حتى ساقته يوما إلى أعتاب قصر أبيه.

راحت أطراف ثوب ميرانو تمتد لتلامس أصابع قدميه فتداعبهم مداعبة رقيقة مغرية، ثم تنحسر وكأنها تتمنع عليه فتزيد شوقه إليها، وبالفعل راح يسير خلف أطراف رداء أبيه حتى غمر الماء نصفه السفلي تماما فانقلبت ساقاه إلى زعنفة ضخمة. عندها تلبسه الخوف وأدبر عائدا إلى أحضان أمه عله يعود سيرته الأولى. لكن فجأة برزت ثلة من بنات ميرانو الحسناوات واللائي رحن يسبحن بخفة ونعومة حوله وقد أحطن به، وقد رحن يغنين بأصوات ساحرات خلبت لب نيما وجعلته يثبت مكانه وهن يدورن من حوله. وعندما غصن إلى أعماق مملكة ميرانو، لم يتردد نيما لحظة بل وثب خلفهن إلى الأعماق.

أشار إليّ مولانا أدهم بن مهران أن أتوقف:

- كيف تمكن نيما من التنفس تحت الماء؟

طأطأت رأسي وجميع من بالمجلس وانصرفنا إلى بيوتنا وقد اعترانا الخجل.

الليلة الثالثة

طوال الطريق وحتى مجلس مولانا المعظم كنت أشعر بكرب عظيم وقد عجزت تماما عن إيجاد إجابة مقنعة لسؤاله الذي سأله الليلة الماضية. وما أن استقر بنا المجلس بدأت في سرد الحكاية، وكنت أنتظر أن يوقفني مولانا لسؤالي لكنه وحمدا لله لم يفعل. فاسترسلت في الرواية.

19 القمر

عندما أشرق صيلانو على وجه بيسانا استيقظ نيما من نومه وقد راح يتلفت حوله وقد هيئ له أن كل ما رآه مجرد مداعبات من فعل كونسو. وعندما وصل إلى منزله راح يسأله حيجانا عن سبب غيابه وقد ساورته الشكوك بشأن أخيه. لاسيما وقد اصطبغت أصابع قدميه بلون فيروزي لامع. راح نيما يتلو الكذبة تلو الكذبة والشيء الوحيد الذي صدق فيه هو أنه لم يدر سر ذلك اللون الذي تلونت به أصابعه. وبينما راح حيجانا يتجادل مع أخيه الأصغر، سمعا طرقات على باب منزلهما.

عندما فتحاه أطل وجه بيسانا الباكي عليهما ومن خلفها تجمع جميع أبنائها. راح نيما يقسم أنه لم يخن أمه ولم يخضع لإغراءات ميرانو، إلا أن بيسانا أشارت إلى قدميه.

- كيف تقسم أنك لم تبلل قدميك بمياه الخطيئة، وقدماك قد اصطبغتا بلون الغواية.

عقد حجيانا ونيما حاجبيهما غير مدركين مقصد أمهما.

- إن ميرانو آل على نفسه أن ينتقم مني، ويفجع قلبي في أبنائي، وأقسم أن يفضح لي كل من يغويه منكم فيصبغ جسده بلون غوايته الفيروزي. وكلما انغمستم في فحشه ودنسه راحت أعضاؤكم عضوا تلو العضو تصطبغ بلونه فلا يمكنكم إخفاء خطيئتكم عني.

انصرفت بيسانا والدموع تجري على خديها بينما راح يهرول أبناؤها جميعا خلفها. وفي النهاية وصلت بيسانا إلى مرقدها فارتمت على جانبها الأيمن ويبست وجفت نضارتها وتشقق وجهه وسكنت.

وهكذا مرت الليلة الثالثة بسلام وذهب كل منا إلى بيته دون أن يعكر صفو ليلتنا خجل أو إحراج.

الليلة الرابعة

تجمع أبناء بيسانا جميعهم حولها، وراحوا يسكبون دموعهم فوق جسدها المسجى أمامهم علهم يبثون الحياة فيها مرة أخرى دون جدوى. وعندما أدرك حيجانا أن الأمر قد قضي رفع رأسه تجاه نيما الذي انزوى بعيدا عن أخوته وهو يشعر بالخزي من فعلته. أمسك حيجانا برأس أخيه وراح يطوحها يمينا ويسارا، ثم أصدر حكمه الذي ظل قرونا يحكم أبناء بيسانا:

- كل من سيسقط في الغواية سيعاقب بالنفي إلى أعماق ميرانوومن اليوم لن يستر أحد أي جزء من جسده حتى لا يُخفي صبغ الغواية تحت ملابسه.

وعندما أُلقي نيما إلى قلب ميرانو راح يستجديه أن يتخذه من أبنائه لكنه تركه يغوص داخله حتى قضى نحبه غرقا.

أسس حيجانا مملكته للدفاع عن أبناء بيسانا ضد إغواء ميرانو، وقد استنى سنة له ولأخوته من أبناء بيسانا وهي أن يتجمعوا أول الربيع من كل عام عند مرقد بيسانا ويسكبون دموعهم ويحفونها بالزهور علها تستفيق من رقدتها ويعود لها بهاؤها ونضارتها. وقد ظل حكم سلالة حيجانا يسود الجميع لقرون. وكانوا هم الدرع الذي يمنع كل بيسانيا من الوقوع في الخطيئة. حتى تولى ماردو ذو الأصابع الفيروزية الحكم، وحينها تغير كل شيء.

الليلة الخامسة

لم يكن ماردو فردا من سلالة حيجانا وفقط، بل كان هو حيجانا نفسه بكل رصانته وعقله وقلبه العطوف الذي جعله يسوس الجميع بالحب قبل القوة. بل وحتى صفاته الشكلية كانت نفس صفات حيجانا كما رصدها كتّاب سيرته. لذا استبشر الجميع خيرا عندما تولى ماردو أمر مملكة حيجانا. فبعد أن مرت آلاف السنين منذ أن ارتكب نيما خطيئته في حق أمه، بدأ إيمان الجميع يضعف وبدأوا في التشكيك في صدق كل ما قيل حول ميرانو وبيسانا. اعتبرها الناس مجرد أساطير لتخويفهم من خوض غمار البحر والبحث عن أرزاقهم فيه. وراجت الأقاويل عن أناس ذوي بشرة فيروزية زرقاء يجوبون طرقات المملكة. وقد بدأ الحكام قبل ماردو يتهاونون في تنفيذ وصايا حيجانا. لكن بمجرد أن ولي ماردو حكم البلاد تغير الحال وراح يضرب بيد من حديد على كل من يخالف وصايا حيجانا. وألقى بالعديد من بني جلدته إلى أعماق البحر، وتشدد في عقاب كل من أخفي جسده أو أي أجزاء منه أيا كان السبب، وكذلك التزم كل أول ربيع بزيارة مرقد بيسانا مقدما القرابين من الورود والأزهار. فكان تولي ماردو للحكم وكأنه بعثا جديدا لحيجانا وأملا جديدا في عودة بيسانا إلى الحياة. إلى أن حدث ما حدث.

الليلة السادسة

قيل إن سبب ما حدث أن نيما جاءه في المنام وراح يقص عليه كل ما حدث له من أعاجيب في تلك الليلة التي غاص فيها إلى الأعماق مع بنات ميرانو. وقيل إن حيجانا اصطحب خونو وزار ماردو في المنام وأسر له بأنه نادما على ما فعله في حق أخيه وعلى ما حكم به من أحكام قاسية على بني جلدته. وقيل إن ميرانو قد تجسد في جسد كونسو وراح يعرض لماردو كل ما تشتهيه نفسه وراح يغريه بكل ما تتوق إليه روحه.

ورغم اختلافهم في السبب ولكن الجميع اتفق على أن ماردو راح يفعل كل ما أوصى حيجانا بمنعه فذهب ليلة إلى شاطئ ميرانو وهناك راح يعبث مع بناته حتى الصباح. وعندما خرج من البحر كانت أقدامه فيروزية. فراح يفكر كيف يمكنه أن يفلت من هذا. وعندما ذهب إلى مقر حكمه وخرج على أهل مشورته وحاشيته. تعجبوا كثيرا من مظهر قدميه.

الليلة السابعة

فوجئت حاشية ماردو به وقد اتخذ من جذوع النخل نعالا شد إلى أطرافها قطعا من الجلد أخفى داخلها قدميه. راحو يتأملوا حذائه الغريب. وفجأة تجرأ أحدهم على السؤال:

- ماهذا؟

ابتسم ماردو:

- إنه حذاء. يقي من لهيب الشمس وأشواك الطريق. وزينة للقدمين بدلا من الأوساخ التي تعلق بها.

راحوا يتأملونها وهم صامتين. لكن لم يجرؤ أحدهم على طرح السؤال الذي ظل يتردد في عقولهم. وحتى لا يدع مجالا لهذا السؤال أن يتردد، أصدر ماردو حكما جديدا نافذا، بأن من لا يرتدي أحذية في قدميه سيتم إلقاؤه إلى باطن ميرانو ليبتلعه. راحت العيون تتبادل النظرات دون أن تنطق الألسن. وارتدى الجميع الأحذية.

وعندما عاد ماردو من الزيارة الثانية دخل على حاشيته وقد لف ساقيه بقطع من الكتان المنسوج. وقبل أن يسأله أحدهم. راح ينظر إلى عواراتهم بازدراء وهو يسألهم:

- كيف يمكنكم أن تظهروا هكذا على بناتكم وبنات جيرانكم؟ ألا تخجلون؟ كيف ترضون أن يطلع الغرباء على سوءات بناتكم؟ عجبا حقا لذهاب النخوة منكم؟ من اليوم لن يسمح لأحد رجلا كان أو أمرأة، طفلا أو شابا أو عجوزا بأن يسير في طرقات المدينة أو حتى يجلس داخل بيته إلا وقد ارتدى سراويلا يداري به سوءته.

راحت الهمسات تدور وكأنها طنين النحل. وانتشرت السراويل في كافة الطرقات وجميع البيوت.

وفي الزيارة الثالثة كان قد غطى ماردو جسده كاملا وغطى كذلك أجساد جميع من بالمملكة. ثم غطى رأسه ورؤوسهم جميعا بقبعات ذات ألوان براقة. ليس هذا فقط ولكن غطى أذنيه كذلك حتى لا يسمع تلك الأصوات التي راحت تدور في الأسواق تجهر بكل ما ظل مخفيا في الصدور لأيام طوال. وأضطر أن يغطي عينيه كي لا يرى تلك النيران التي راحت تشتعل في أطراف بيته ومقر حكمه وقد راحت تلتهم إرث حيجانا وكل من جاء بعده، وفي النهاية التهمت ماردو بملابسه جميعا وحتى قبعاته الملونة.

الليلة الثامنة

اجتمعنا في الليلة الثامنة في قصر مولانا السلطان أدهم بن مهران ونحن نتساءل فيما سنتحدث بعد أن فرغنا من قصة الرجل ذو الأصابع الفيروزية. وفجأة سمعنا أصوات صاخبة تتجمع حول القصر وقبل أن ننهض لاستكشاف سر هذه الأصوات أطل علينا مولانا السلطان بطلعته البهية فتسمرنا جميعا ونهضنا لاستقباله حتى استقر به المجلس على عرشه. عندها تتطلع إلينا وقال:

- لم يغمض لي جفن ليلة أمس قط، أتدرون لماذا؟

جميعنا في فم رجل واحد:

- لماذا يا مولي؟
- ظللت أتساءل، ترى لو أنكم خلعتم ملابسكم كيف سيكون لون جلودكم؟

رحنا ننظر إلى بعضنا البعض. مبتسما استكمل قائلا:

- ترى هل ستكون فيروزية اللون مثلا؟

اتسعت أعيننا جميعا ونهضنا ونحن نرفع أصابع الاعتراض:

- مولانا إن هذه ما هي إلا أساطير وحكايات توارثناها عن آبائنا وليس لها أي نصيب من الصحة.

فقاطعنا:

- تعلمون أن حكم النفي إلى البحر مازال ساريا حتى الآن لكل من يقترب من شاطئه. فغرضي من هذا أن أتأكد من صدق تلك الأسطورة. أو على الأقل أتأكد من طهارتكم التي لا ينالها شك، ولا تشوبها شائبة.

نهض وهو يتجه إلى باب القصر:

- ولإثبات إخلاصكم أمام جميع أهل المملكة فقد جمعتهم ليشهدوا جميعا تجردكم من ملابسكم لإثبات طهارتكم أمامهم.

التف حولنا أهل المملكة جميعا وهم يهتفون بأن نخلع ملابسنا، بينما راح ذلك الفتى يضحك وهو واقف أمامهم يغريهم بنا. فجأة تقدم الوزير:

- مولاي السلطان، نحن حاشيتك ويحق لك أن تختبر ولاءنا وطاعتنا.

ثم صمت وهو يجيل بصره في أهل المملكة:

ولكن أي خطر قد يمثله ثلة من أهالي مملكتك مهما بلغ نفوذها أو قربها منك؟ القوة الحقيقية يا مولاي تكمن فيمن يقفون خلفك لا من يقفون أمامك.

انعقدت حواجب الجميع ونحن كذلك.

- مولاي يتوجب على حاشيتك جميعا أن تخلع ملابسها إثباتا لولائها وأنا أولهم، لكن يجب على الرعية جميعها أن تخلع ملابسها كذلك، هذه هي وصايا جدك حيجانا العظيم، وأنا علي يقين أنه سيرى من الظلم اتهام البعض دون البقية بالخيانة.

بهت الجميع، بينما ابتسم ذلك الفتى الأرعن:

- إن الوزير يتحداكم جميعا أن تخلعوا ملابسكم، حسن فلتخلعوا ملابسكم أولا لتثبتوا لهم طهركم.

تسمر الجميع دون أن يحرك ساكنا. جال ذلك الفتى الغرير بعينيه بين الوجوه:

- ماذا تنتظرون؟

الوزير:

- يبدو أنهم يخشون الفضيحة.
- أحقا تخشون الفضيحة؟ هأنا أخلع ملابسي أمامكم إن كان الخجل هو ما يمنعكم.

تجرد من ملابسه ووقف عاريا تماما أمام شعبه ببشرة تضاهي الحليب. عندها أكفهر وجه الوزير وصرخ:

- أرأيتم يا قوم من ولي أمركم؟ مجرد فتى مجنون. يخلع ملابسه في الطرقات. لا تردعه بقية من حياء أو لمحة من عقل عن فعل ما يشين النبلاء أو العقلاء.

راحت الصرخات تتعالي وهم يلتفون حول ذلك الفتى المجنون الذي خلع ملابسه أمام الجميع، فخلعناه ورحنا ندعو لعمه مولانا الحكيم السلطان مغثمر الغدار. خشينا إن حبسنا هذا الفتى الغر أن تحدث فتنة وتنقسم البلاد على نفسها. فحملناه من فورنا إلى شاطئ ميرانو وألقيناه في أعماقه. راحت الفقاقيع تطفو إلى السطح بينما راح الفتى المجنون يغوص إلى القاع. في النهاية استقر سطح ميرانو بلونه الأزرق الفيروزي البديع رمز النقاء والصفاء.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

جلس يتلوى وهو يلعن ذلك اليوم الذي صحب فيه والده إلى زميل دراسته القديم في تلك الزيارة التي جرت عليه كل هذا الألم والعذاب المضني. عندما دخل إلى تلك الشقة الواسعة ودار في أرجائها دارت معها رأسه، وأخذ يقارن بينها وبين شقته بنفس طريقة المقارنة التي اعتادها في المدرسة فرسم في مخيلته جدولا ذهنيا من ثلاثة أعمدة وعدة صفوف، فوضع شقته في عمود وهذه الشقة في عمود آخر واحتل وجه المقارنة العمود الثالث، ثم أخذ يهبط مع الشقتين صفا صفا وبعد ثلاثة أو أربعة صفوف توقفت شقته عن الهبوط بينما استمرت الأخرى بمفردها في ملأ صفوف الجدول الخيالي والذي امتد ليتجاوز مخيلته المحدودة. وتوالت جداول المقارنة عندما شاهد زوجة صديق والده وابنه الذي يصغره بعدة أعوام، والأطباق والمشروبات والمأكولات وظل ذلك السؤال يلح على خاطره على الرغم من إنه يعرف إجابته جيدا، كيف تعرف والده على صديقه هذا؟! وعندما دوى النداء في ..... أذنيه طلب بمنتهى العفوية أن يذهب إلى "الكبانيه" فابتسمت له وهي تسأله "عايز التواليت؟" كاد أن يجيبها بأدبه المعهود أن معدته قد امتلأت ويكفيه ما أمامه من مشروبات وحلوى، لولا إنه فطن للخدعة سريعا فهز رأسه بتردد أن نعم، فسحبته من يده وأرشدته إلى مبتغاه. انسدل جدول آخر للمقارنة بمجرد دخوله وأخذ يملأ صفوفه وهو يلبي النداء. عرف إنه لا يجوز أن يطلق على هذا المكان "كبانيه" فهو لا يشبهه على الإطلاق فكيف يمكن لهذا المكان الشاسع الذي يضاهي في مساحته حجرة والديه الكبيرة أن يكون سميّ ذلك الجحر الذي يتلوى فيه كالثعبان ليهمس فيه ملبيا النداء في سرية خشية أن يسمعه أحد، بل إن هذا البانيو يكاد يوازي في حجمه سرير والديه أيضا، وكيف يقبل ذلك السيراميك الفخم ذو الألوان البراقة والتصاميم البديعة والتي تدور فيها الدوائر وتلتف فيها الخطوط لترسم أعوادا من الزهر المذهّب أن يشبّه بأسمال ذلك الأسمنت المهترئ الذي يعرّي سوءة الطوب الأحمر مكشوف اللحم ودوائر الرطوبة والشروخ التي تلتف لترسم أحد شياطين العصور الوسطى وقد شرع قرنيه. عرف جيدا إن هذا المكان قدر له أن يكون "تواليت" أما مكانه فلا يمكن أن تعلو مكانته عن مجرد "كبانيه". أخذ يلعن تلك الزيارة الآن وهو يجلس في الفصل ويشعر بمثانته وهي تكاد تنفجر ويريد أن يطلب من الأبلة أن يذهب إلى التواليت، ولكنها لا تشبه زوجة صديق والده حتى تعرف معنى التواليت، ولسانه يأبى أن ينحط لمستوى كلمة كبانيه مرة أخرى وأن يسمح لها بأن تجري عليه. ولكن عندما اشتد ألمه نهض يطرقع بسبابته على وسطاه دون أن ينطق بكلمة، نظرت إليه مستغربة حيث إنها لم تسأل أي سؤال

حتى يتطوع بالإجابة فسألته "عايز إيه؟" كاد يبكي حاول أن يتذكر باستماتة - وهو يجز على أسنانه ويمضغ شفتيه - تلك الكلمة التي كان يستخدمها في السابق، ولكن بدا وكأن تلك الزيارة اللعينة قد محت ذاكرته بالكامل. نظر إلى يمينه لمحها تخطر بدلال تغويه بجسدها البض المترع وعندما انطلق بخاطره إليها وكاد أن يقتنصها التفتت إليه وهي تخرج له لسانها وتتأبى أن تجرى على لسانه، وعندما حول وجهه إلى الجهة الأخرى وجد الأخرى تضم ركبتيها إلى جسدها الضامر منكسة الرأس، فرثي لحالها وحاله واندفع إليها فرفعت إليه وجها أسود مغبرا كأنه وجه الشيطان ذاته، هاله المنظر ففر هاربا، وعندما رأته الأبلة يتلوى في وقفته ويكاد يطفر الدمع من عينيه سألته "عايز الحمام؟" اتسعت عيناه وارتفع حاجباه.. هز رأسه أن نعم بلا ذرة تردد، وجرى إلى الحمام الذي يعرف طريقه جيدا، وعندما أنزل سوستة البنطلون، وشرع في تلبية النداء، اجتاحه شعور عارم بالارتياح فأخيرا وجدها، طالما سمع كلمة "حمام" ولكنه لم يعرها اهتماما حيث كان في غنى عنها، ولكن عندما احتاجها شعر بجمالها وحلاوتها وبساطتها فلم يشعر أمامها بالضآلة التي يستشعرها أمام "تواليت" ولا الحقارة التي يشعر بها إزاء "كبانيه". وبينما أخذ ينقش كلمة "حمام" في صدر عقله، قبل "تواليت" وودعها وهي ما زالت تنظر إليه تلك النظرة المغرية الساخرة، وقبل "كبانيه" وهي ما تزال تنظر إليه تلك النظرة الكسيرة، ووضعها جوار حائط الذكريات القديمة الذي أقامه في مؤخرة ذاكرته لينقش فيه أو يعلق عليه ما بلي من ذكريات. وعندما انتهى من تفريغ حمولته التي اثقلت ظهره وجعلته يتلوى تائها حائرا في وقفته، رفع السوستة وانطلق يتقافز إلى فصله وقد غمره شعور بالفرحة.

نطفة في رحم بارد

مقتي الشديد للفيس بوك كان مثار تعجب زملائي. يرون أن الاختباء خلف جدرانه يليق بشخصيتي الخجول. يعتقدون أن جهل محدثي بي سيعزز ثقتي بنفسي. يظنون أنني سأندفع في الحديث دون تردد أو ارتباك. يجهلون أن مقتي للجدران يعود الى سنتي الأولي في الجامعة.

عندما انتهت أولى المحاضرات فررت بجلدي من ذلك الجحيم المكتظ بمردة الجن والأبالسة. رئتاي تركعان طلبا لأنفاس طازجة. قدماي تتخبطان بحثا عن سبيل للهروب. يجب أن ألملم أشلاء نفسي المبعثرة قبل أن تتفتت تماما في المحاضرة التالية. جنة آدم برزت أمامي من العدم، بينما توارت عن أنظار الجميع. مثلث كهفي يختبئ أسفل السلم الخارجي لأحد المباني، به كرسي خشبي هرم نصب قوائمه بالوصيد. ولجت جنتي.

جدران الكهف مجلدة بالرخام الأبيض. مساحيق الغبار خددت وجهه بظلال رمادية. ظله نزل بردا وسلاما على نفسي. استردت روحي أنفاسها. لفت انتباهي تلك الدائرة البيضاء التي سطعت وسط ذلك الوجه الرمادي. انسابت بعض الخطوط المرسومة بالقلم الرصاص وسط تلك الدائرة الشابة الخالية من التجاعيد. نطفة لوجه ما زال يتخلق. تراقص خط رأسي هابطا ليحدد الخد الأيسر. يلاحقه خط مواز معقوف النهاية يحدد الشكل الخارجي للأنف. ينحصر بينهما خط مستعرض للحاجب الايسر. نظرت بلا اهتمام حقيقي في البداية. ما أثار انتباهي حقا هو أن ثمة ساكنا آخر لتلك الجنة. ساكن يريد أن يعمرها بخطوطه. انشغلت بتلك الخطوط وصانعها، حت كدت أفوت المحاضرة الثانية. فهرولت مغادرا وفي نيتي العدة في أقرب وقت ممكن، ولكني انشغلت انشغالا شديدا في المحاضرات المتلاحقة فتغيبت عن جنتي لأسبوع كامل.

عندما سنحت برهة من الوقت، طرت بأجنحة الشوق إلى كهفي. لكن.... هالني ما وجدت. استقبلني ذلك الوجه النامي وقد اكتملت معظم ملامحه. استقبلني بأنفه المدبب المستقيم الأرنبة. واجهني بعينه الواحدة الضيقة. انتظرني بطابع حسنه الغائر في ذقنه. كنت أنا بانتظاري؟!!

تهاويت على مقعدي غير مصدق لما أرى. جلست صامتا وأنا أشاهد نفسي أتكون عضوا عضوا. فها هي العين الثانية تتفتح. الأذن القريبة تبرز. الشعر الخشن فاحم السواد ينبت وينمو ويترعرع فوق جبهتي العريضة. لم أقو على الكلام طوال فترة نموي. عندما اكتملت شفتاي لم أحتمل الصمت

أكثر من هذا. أمسكت بمنديل ورقي. مسحت دائرة من المساحيق. أخرجت قلمي، فخرجت أول كلمة من بين شفتيّ. تلك الكلمة التي ظلت مختبئة طوال تلك الفترة، لكنها لم تغادر كهفها أبدا.

- من أنت.....!

تلعثمت أصابعي وهي تنطقها. رغم عشرتنا الطويلة، عندما تحررت تلك الكلمة الحبيسة شعرت بوحشة تجاهها. كانت تعيش في مكان لا لبس فيه. لا حاجة فيه لعلامات التشكيل. أما الآن وقد خرجت إلى عالم آخر غريب عنها، فعليها أن ترتدي علامات التشكيل لتبدو واضحة للعيان. ترى هل يرتدي صانع ذلك الوجه فتحة أم كسرة. لا مجال للاختيار... فالتقاء الفتحات في عالم البشر كالتقاء السواكن في عالم الحروف.

- من أنتِ؟

ردا على سؤالي، صفعني وجه بارد بلا أية انفعالات.

- من أنتِ؟

كررته عدة مرات.

- من أنتِ؟

رحت أصرخ.

- كيف رسمتني؟ هل أعرفك؟
- من أنتَ؟

تعجبت من الإجابة، لكني فرحت بها فرحة العاقر بمولودها الأول.

- أنا صنيعتك.
- أتمزح؟
- أنا لا أحب المازحين. أقسم لك أنّي أنا.
- أنا لا أعرفك. فأنت محض خيال.
- أتمزحين؟

- أنى لي أن أمزح!

هل حقا لا تعرفني؟ هل أنا حقا محض خيال؟ أخذت أتطلع في ملامحي جيدا. ربما كان هذا سر الاختلاف الطفيف بيني وبين نفسي. هذا يفسر امتلاء الوجه رغم نحافتي. تحركت عظامه حتى صار نحيفا مثلي. والشفتان ليستا بهذا الاتساع. أخذت شفتاه تضيقان حتى طابقا شفتيّ. والأذن الوحيدة الظاهرة شديدة الضخامة. فأخذت الأذن تنكمش حتى تناسقت مع كامل الملامح.

كنت في غاية السعادة في ذلك اليوم، فقد اكتملت هيئتي. إنه يوم مولدي. عندما انفردت بنفسي أردت أن أخلق لها صورة. لن أرسم ملامحها. سأرسم دقات قلبي المتلهف للقياها، وآهات روحي المتعطشة لسقياها، ورفرفاتها وهي تحط من سمائها، وهمساتها الحالمة وهي تداوي روحي بمناجاتها، وارتشافي سلافة ريقها من على شفتيّ. سأرسم ارتعاشة النشوى التي ستسري في بدنينا عند امتزاج روحينا. تناولت الجيتار. ضربت عدة ضربات. اهتزت أوتاره، بينما تيبست أوتار يدي. لم أعد قادرا على منع نفسي أكثر من ذلك.

أخذت أراقب الجنة. أهملت محاضراتي ودراستي بل وحياتي كلها وأنا أتراقب حضورها بلا طائل. رحت أدور في أرجاء الجامعة، ولكني لم أعثر سوى على بنات حواء. الغريب أنه عند ولوجي أجد أثر زيارتها. إذن لا مفر:

- أريد أن أعرفك كما تعر فينني؟
- أنا لا أعرفك؟
- كيف وأنا صنيعتك؟
- رسمي ما هو إلا وصفك.
- وهل يضاهي الدعاء قوة القضاء؟
- لست إلها!
- ما دمت لست إلها، فلم حرام عليّ رؤيتك؟

كلفني هذا السؤال نصف وجودي. فقد مُحيت أذني وعيني ونصف جبهتي وأنفي. بحرص أخذت أتحسس أنقاضي. ألوذ بالصمت خشية أن أمحو البقية الباقية مني. ساد الصمت طويلا. بدأت أشك في وجودها. بدأت أتساءل. هل رحلت بلا عودة؟ لو أنها لا تنوي العودة فلم تركت نصف ما تملك؟

بعد طول صمت، عادت ملامحي للنمو مرة أخرى. ظللت صامتا. لم أنطق بكلمة واحدة حتى اكتمالي. بعد اكتمالي. نطقتْ كلمتين:

- غدا. العاشرة.

لم أسألها عن هيئتها. وهل أخطئ في حواء؟ لم أسألها عن المكان. هل من مكان سوى جنتنا؟

بمجرد دخولي من باب الجامعة اتجهت رأسا إليها. عندما وصلت هالني ما رأيت. شيء كهذا كنت أتوقعه. لكن ليس بتلك القسوة. عرفتها فورا. رغم كل ما أحاط بها. ذلك النقاب الذي ترتديه صدمني. إلا أن تلك النظرة المذنبة التي أطلت من أسفله طعنت فؤادي. نظرة لم تكن لتصدر إلا عن إبليس، وقد أدرك مقدار خطيئته في حق الرب. أطلقت تلك النظرة نحوي عندما رأت ذلك الصليب يطوق رقبتي.

أسطورة برج هانوي

تذكر الـ "Recursion" وهو يقف في الطابق السادس ويراقب عامل البناء الشاب بعضلاته المفتولة وصدره العريض وقامته المدكوكة وظنابيبه العارية وهو يخلخل لبنات جدار الأسمنت الصلب المنتصب أمامه ويحملها شيكارة تلو الشيكارة، وقد غمر العرق وجهه الذي لفحته الشمس والذي فشل رغم غزارته في أن يلين ملامحه الحادة والتي تزداد حدة عندما يسحب إحدى الشيكارات ويعفقها على ظهره ليبدأ رحلته في الصعود. نظر إليه وهو يلقي بحمله عند قدميه، فلم يلتفت إليه، لم يحيه، بل لم يعره أي اهتمام؟ ما إن ألقى حمولته حتى طرد أنفاسه الملوثة واستنشق هواء جديدا ثم غاص هابطا مرة أخرى.

تسائل كثيرا وبحث قليلا عن كلمة عربية لهذا المصطلح، لكنه عاد صفر اليدين. كان يفهم الـ "Recursion" جيدا ويحل مسائله النظرية، لكن الطامة الكبرى تحدث عندما يطلب منه تطبيقه في حل مشكلة عملية معينة كان وقتها يقع في حيص بيص ولا يدري من أين يبدأ ولا إلام سينتهي، ويظل يدور حول نفسه في "Recursion" سرمدي.

تذكر إدوارد لوكاس والذي أراد ضرب مثل عملي لهذا المفهوم فاخترع أسطورة برج هانوي. وتحكي الأسطورة عن ذلك المعبد الهندي والذي يحرسه مجموعة من الكهنة. وداخل ذلك المعبد تقبع قاعة سرية مقدسة لا يطأها سوى كبير كهنة المعبد ويسلم السر إلى من يخلفه، فإذا ما تجرأ أحد الكهنة أو من تدنست قلوبهم بالخطايا وحب الدنيا وحاول التسلل إلى القاعة، برق شهاب من العدم فضربه وحوله إلى رماد تذروه الرياح. داخل تلك القاعة المقدسة تنتصب ثلاثة أعمدة ممزقة الأديم مهلهلة الأوصال. وتسلك تلك الأعمدة مجموعة من الحلقات الذهبية، لا يقوى على زحزحة أصغرها رجال العالم كافة ولو اجتمعوا على كتف رجل واحد، بريقها يسلب كل من يفكر في النظر حتى قبل أن يحول رأسه تجاهها. يبلغ عدد تلك الحلقات أربعا وستين حلقة. وتذكر النبوءة المقدسة المنشورة في فضاء القاعة إن براهاماي كتب عليه أن ينقل هذه الحلقات من العمود الأول إلى الأخير مستعينا بالعمود الأوسط، وذلك وفق الشروط المذكورة في النبوءة التي تنص على أنه لا يمكن نقل سوى حلقة واحدة كل مرة، ولا يجوز أن تعلو حلقة ما فوق حلقة أصغر منها. وقد كتب في أطراف النبوءة عاقبة مخالفة تلك الشروط، ولكن أطراف النبوءة التفت وطوت سرها في قلبها؛ فلا أحد يعلم ماذا سيحدث إذا وقعت المخالفة، أو إذا ما كلّ براهاماي أو مل، وألقى حمله

الثقيل عن عاتقه وفر بجلده من ذلك العذاب. وقد قدرت النبوءة إن براهاماي سينجح في نقل كافة الحلقات بعد ملايين، ملايين، ملايين.... السنين لكنها لم تذكر أي شيء عن أصله ولا متى بدأ سعيه.

يحمل براهاماي الحلقة تلو الحلقة على كتفيه العاريتين ويسير مغمض العينين وقد نفرت جميع عضلاته ويظل يحبو على اثنتين حتى يضعها في العمود الآخر، ويعود حتى دون أن يلتقط أنفاسه لسعيه مرة أخرى وكأنه سيزيف يتردى في عقابه الأبدي. وإذا كان فشل سيزيف صفعة على وجه البشر، فإن نجاح براهاماي هو صفعة على وجه الكون بأكمله صفعة ستطيح برشده وتطير لبه وتفقده اتزانه، فتطيش الكواكب من مداراتها وتفلت النجوم من أفلاكها ويهرع البشر صارخين مولولين يطوفون بلا هدى وقد طاش صوابهم، وتتهاوى السماء فوق الرؤوس وتذيب الشهب الأبدان ويتحول الكون بأكمله إلى أثر بعد عين.

أفاق من خيالاته وعاد إلى أرض الشارع فوجد جدار شيكارات الأسمنت قد اختفى وصار أثرا بعد عين. سمع تلك الأنفاس تتلاحق خلفه، فاستدار فوجده جالسا على الأرض غارقا في بركة من العرق وقد تدلت يداه من فوق ركبتيه، حينئذ رفع رأسه إليه وابتسم:

- صباح الفل يا باشمهندس، أنا نقلت الأسمنت كله. هنبتدي شغل بكرة إن شاء الله.

رد التحية والابتسام وهو يقول:

- هنبتدي البنا بكرة إن شاء الله.

واتسعت ابتسامته وهو يلتف ويحلق بعينيه في السماء الواسع المشرق أمامه، وقد قرر أن يكتب كتابا عن الـ "Recursion" ويقوم بشرحه من خلال أسطورة جدار الأسمنت والعامل مفتول العضلات عاري الظنابيب.

الرجل الذي فقد ربع جنيه مخروم وما يزال يبحث عنه حتى الآن

إذا سألت أحدهم ما أسوأ ما يمكن ان تتوقعه في حياتك؟ لربما اجابك هذا الأحدهم " فقدان المال" وربما أجابك أحدهم آخر " فقدان الولد" أو أجابك أحدهم ثالث " فقدان المال والولد". وقد يُطير الخوف من المستقبل لب أحد هؤلاء الآحاد فيرد عليك أن أخشى ما يخشاه هو أن تتزلزل الأرض من تحت قدميه، أو تغمر الحمم رأسه متفجرة من أحد البراكين أو أن ينشق القمر أو تساقط السماء عليه كسفا أو حتى يصبح ليجد الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش. أما لو وجهت هذا السؤال للحاج " استوكل " فربما ابتسم ونظر إليك نظرة استخفاف أو فرقع ضحكة عالية في الجو، أو ربما استلقى على قفاه وجسده كله يرتج من شدة الضحك رافعا رجليه وهو يرفص الهواء وكأنه حمار في شرخ الصبا يتعاطى حمامه الترابي المعتاد؛ كيف يمكن أن يخشى تقلبات الدهر ونفحة سيدي أبي المعالي تطوق رقبته!!؟ ورغم غناه الفاحش إلا إن الحاج استوكل كان متواضعا وعطوفا على أهله وأهل القرية جميعا. وكانوا كافة يرون فيه الصلاح والتقوى؛ حيث كانت لا تفوته أية صلاة حتى صلاة الفجر. كما خبروا منه الجود والكرم حيث لم يكن يبخل على فقير أو معوز؛ لذا فقد حزن الجميع بشدة عندما استيقظت القرية على نبأ اختفائه.

أوصافه ...؟ طويل. ممتلئ الجسم ..... له وجه أبيض شتاء أحمر صيفا ..... يرتدي جلبابا بلديا وكوفية من أرقى أنواع الصوف .... تنتصب طاقيته فوق رأسه كما ينتصب تاج مينا موحد القطرين ..... ويمشي مشية مينا موحد القطريين.. ويتكأ على عصاه التي تشبه صولجان مينا موحد القطرين، ولكنها أطول. كان الحاج استوكل هو الخليفة غير الرسمي لسيدي أبي المعالي، لما لا وقد كان من أقرب المقربين إلى سيدنا. فقد استيقظ الحاج استوكل في بطن أمه على مسكة يد أبيه وهي تجذبه ليذهبا لحضرة سيدي أبي المعالي وتأدية الصلاة. وعلى الرغم من صغر سنه ظل يتذكر أول مرة جذبه فيها والده ليحضر جلسة سيده. تذكر كيف كان يقف في قلب حلقة الذكر كنخلة باسقة، وكيف كان يتحلق حوله الذاكرون كأطفال يتحلقون حول نخلة باسقة؛ ينتظرون أن تجود عليهم بنفحاتها الطيبة من ثمار الجنة. تعلم من أبيه كيف يجلس في حضرة سيدهما أبي المعالي، وكيف يقبل يده وكتفه، وكيف يتمسح بملابسه لينال النفحات الطيبة، وتعلم كيف يطوح رأسه يمينا ويسارا حتى الانتشاء. في البداية كان يشعر بالدوار أما بعدما احترف التطويح وأدمنه شعر بإنه مع كل تطويحة تنفلت منه روحه رويدا رويدا محلقة فى أجواز السماء وعندما تنعتق روحه من بدنه تماما يشعر بنشوي غريبة تكتنف نفسه، وصفاء يسكن قلبه ويسكنّه.

لم تفلته يد والده إلا لتمسك به يد خاله، والذي أمسكه بيد بينما كانت الأخرى تربت على كتف أمه بحنو شديد. وما ورثه الحاج استوكل من والده لا يساوي شيئا بنظره إذا قورن بما ورثه من حب سيدي أبي المعالي وما ورثه عنه. كان سيدي أبو المعالي وليا من أولياء الله الصالحين، نذر حياته لله. يطوف البلاد شرقا وغربا شمالا وجنوبا لا يبغي شيئا من دنياه سوى أن ينشر محبة الله في القلوب، ويضع الأقدام التائهة المتخبطة على بداية الطريق لله. كان يضع رحاله في البلدة وقتما احتاجه أهلها. فإذا ما أحاطت الكروب بأحدهم دعا الله بأن يرسل سيده أبا المعالي فيبعثه الله، وإذا ما تخبط أحدهم في مسألة سهر الليالي الطوال يبث شكواه لسيده، فإذا به يقدم إليه وبنظرة واحدة يعلم ما ألم به من خطوب. كان سخيا جوادا يوزع على فقراء القرية والقرى الأخرى ما كان يجمعه من أغنياء القرية والقرى المجاورة، بل إن فقراء البلدة أنفسهم كانوا يتبرعون بما تطاله أيديهم وقد أزهدهم حب سيدي أبي المعالي وكلامه في كل متع الحياة. أحبه أبو المعالي كما كان يحب والده وقربه كما كان يقرب والده. كان أبو المعالي بالنسبة له هو رجل لكل الأعاصير.

عندما بلغ مبلغ الرجال وانتقى واحدة ممن بلغن مبلغ النساء، جاء متخفيا في فجر يوم الصباحية إلى حجرة أبي المعالي الملحقة بالجامع، وانتظره حتى يفرغ من صلاة الفجر وجلس محني الظهر وقد أخذ يعصر طاقيته بين يديه. وعندما دخل أبو المعالي حجرته، انتفض وشرع يبسمل ويحوقل وقد ظنه عفريتا من عفاريت الفجر، ولكن عندما هدأ جلس وربت على كتفه واحتضنه ثم أمسك برأسه وأخذ يتلو في أذنيه بعض العبارات التي سمعها ولم يفهمها، وبعد عدة أيام عاد إليه عقب صلاة الظهر منتصب القامة والطاقية وهو يبتسم ابتسامة واسعة وانحنى وقبل يديه.

بعدها بعدة أشهر جاءه مع غروب الشمس وإلى جواره امرأته وقد أسدلت طرحتها على وجهها، وبمجرد دخولهما أسدلتها عن وجهها، وأخذت تعصر الطرحة بين يديها وهما ينتظران فروغه من صلاة المغرب، وعندما دخل تراجع وهو يبسمل ويحوقل وقد بديا له في عتمة الحجرة وكأنهما قرني شيطان المغرب، وعندما هدأ أمسك ورقة وقلما وتلا كلمات علي القلم ففهمها وكتب - القلم - بعض الأحرف المقطعة التي قرأها - الحاج - ولم يفهمها، وفي النهاية وضع - أبو المعالي - حبة أرز في قلب الورقة ثم طواها علي شكل مثلث - وقد ندم الحاج بعد فوات الأوان أنه لم يطلب من سيده أن يطويها على هيئة سداسي أو ثماني - وبعد مرور عدة أشهر أخرى جاءاه بعد صلاة الظهر والبشر يطفح من وجهيهما فانحنيا وقبلا يديه.

وكان أبو المعالي إلى جواره أيضا عندما تلبست ابنه الجنيات بعد أن أنهى امتحانات الثانوية العامة، فجعلت النوم يجافي عينيه، وظلت نظراته الشاردة تدور في أرضية الحجرة في حلقات مفرغة أينما جلس، وكان يغلق بابه عليه كسيف البال والخاطر ويغضب لأتفه الأسباب ويثور ويتركهم لينفرد بنفسه. عندها أخذه إلى سيدي أبي المعالي عقب صلاة العشاء، وعندما دخلا عليه قفز من مكانه وهو يضم حجر جلبابه الواسع - بما يحويه - إلى صدره وقد حسبهما لصان، وبعد أن هدأ نظر إلى الولد الجالس جوار والده وهو يعصر يديه بين يديه. مكثا قليلا وانصرفا معا بعدما احتضن وربت وتلا. وبعدها جاء الولد سائرا إلى جوار والده ليحمداه ويقبلا يديه أن زالت غمة الولد بل إنه نجح ودخل كلية الطب أيضا.

وعندما انفرد الدكتور - الأخ الأكبر - بأخته وأخيه وأغلق الحجرة خلفهم، ونهضت زوجة الأكبر لتصنع الشاي، علمت زوجة الأصغر إن أمرا جللا قد وقع. لطمت الأخت خديها بينما لطم الأخ فخذيه، ولطمت زوجة الأكبر خد صغيرها؛ ليصمت لتتمكن من سماع ما يبثه والده من أنباء من نافذة المطبخ الملاصقة لنافذة الحجرة.

قال ابنه إن آخر مرة شهده فيها كانت عندما أيقظه لصلاة الفجر وأخبره إنه سيسبقه إلى الجامع، بينما ذكرت زوجته إنها ودعته حتى باب الدار في طريقه للمسجد. حاولوا إخفاء الأمر في البداية حتى تتضح الأمور، ولكنه انتشر وانقلب المركز بأكمله، حيث إن الحاج استوكل كان من أكبر وأهم شخصيات المركز، بل وربما المحافظ بأكملها.

وجدوا طاقيته وكوفيته الصوفية ملقاة في طريق الجبانة، وثمة آثار عراك عنيف تحكي تفاصيله أرض الطريق المتربة. أكف الحج وركبه مطبوعة في أنحاء الأرض وكأنما أجبروه على الحبو على أربع..... لا لم يكن له أعداء ..... كيف وهو يسكن قلوب الجميع؟! لا لم يمر باية ضائقة مالية كيف وهو ملاذ الجميع؟! عندما علمت القرية بما حدث خيم عليها حزن لا يوازيه سوى ذلك الحزن الذي خيم عليها عندما رحل أبو المعالي.

ففي يوم من الأيام وبينما وقف سيدي أبو المعالي يطوح رأسه بين أحبابه ومريديه، دارت تلك الرأس دورة كاملة ثم انهار الجسد وكأنه نخلة باسقة تنهار، وأثار حوله زوبعة من البشر من القرية والقرى المجاورة، هرول الجميع نحو الجسد الممدد وقد فارقته الحياة، ومن بين دموع عينيه لمحه فمد يده ودسه في جيب الجلباب ونظر حوله خشية أن يكون قد لمحه أحد المريدين. وعلى الرغم

من حزن القرية لموت العارف بالله إلا إنها شعرت برضا الله عنها حيث قدر أن يموت سيدي أبو المعالي بينهم؛ فحلت بذلك البركة على القرية كلها. وأقام أهل القرية مقاما في الحجرة الجانبية الملحقة بالجامع الكبير يطوف به كل من ألم به كرب أو أحاطت به مصيبة فيجد من يفرج عنه كربه ويزيح عنه مصيبته. أما هو فقد كان أسعد الناس حظا حيث وجد تلك النفحة التي خصه الله بها دونا عن باقي أهل القرية. كانت ربع جنيه مخروم سقط من سيدي أبي المعالي أثناء سقوطه. لم تكن هذه النفحة تفارق جيبه على الإطلاق، فقد حفظها داخل ذلك المصحف الصغير الذي يصحبه في كل مكان.

وقد كانت تلك النفحة فاتحة الخير عليه؛ فعندما تواترت الأنباء عن احتمال أن تدخل أرضه الزراعية زهيدة الثمن كوردون مباني، أخذ يدعو الله وهو يقبل النفحة ويمسح بها جسده قبل كل صباح وذبر كل صلاة بأن يفتح عليه فتحا مبينا. وعندما دخلت أرضه كوردون مباني اشترى سلسلة فضية غالية الثمن وسلكها في النفحة وطوق رقبته بها حتى لا تفارقه أبدا. وعندما جاءته ابنته وقد عصر الحزن قلبها؛ فسالت الدموع غزيرة من عينيها؛ أخذ يمسح رأسها بالنفحة، فلم يمض سوى القليل حتى أخذت تطلق الصرخة تلو الصرخة ثم تبعتها في النهاية صرخة وليدها. ومنذ أن من الله عليه بهذه النفحة ولا شيء يؤرقه ولا يفت في عضده، حتى وقت اختفائه.

وقد فشلت جميع الجهود في الكشف عن حل اللغز، وظل السؤال يدور في سماء المحافظة بأكملها معكرا صفوها وملقيا بظلاله السود على قلوب أقرباء ومعارف ومحبي الحاج. وفي ظل الجهل وغياب الحقيقة كثرت الحكايات والتأويلات، منهم من أكد أنها إحدى الجنيات التي ترتع ليلا عند الترعة، أو أحد أبالسة الجن سلطه من أكل قلبه الحقد لما يحتله الحاج من مكانة. ومنهم من أقسم إنه أثناء صيده لبعض الأسماك لمح الحاج يخطو على الماء ثم فجأة غاص فيه. والبعض قال إنه سمع إن شيخا عابدا ظهر في إحدى المحافظات المجاورة تنطبق عليه أوصاف الحاج، يقضي نهاره في الصلاة والذكر والتطويح ويقضي الليل في جبانة القرية، يخمش الأرض ويخمش وجهه في طقوس تعبدية لم يعهدوها من قبل. وعندما ذهبوا لاستبيان الخبر أخبرهم أهل القرية أن ذاك الشيخ قد توفي وأقاموا له ضريحا، وتصدوا لهم عن بكرة أبيهم مانعينهم من نبش ضريح أحد أولياء الله.

استسلم الأبناء والأحباب للقدر، وأغلقوا قلوبهم على حزنهم، كما أغلقت الحكومة الملف على التحريات. لكن ظلت ذكرى الحاج قائمة بين أهل القرية من خلال أبنائه وأحفاده. وكثيرا ما كان

يدخل أحد أبناء القرية ويطوف حول سيده فيدعوه بأن يرد غيبة الحاج التي طالت وهو يتأسى ويتأسف ويتمنى لو أن سيده أبا المعالي كان حيا وقتها، كان سينشر أحجبته ويقلّب حبات الأرز وينظر فيها ويعرف أين مآل الحاج حاليا ..... نعم .... ليته كان حيا لكان ببصيرته النافذة رأى الحاج وهو يودع زوجته، ورآه وهو يسلك تلك الطريق الميتة إلى الجامع، وعندما شعر بذلك الشبح يتلبسه ويتسرب إلى روحه ويقبض على صدره، كان سيراه وهو يخرج السلسلة الفضية ليستعين بالنفحة على شياطين الطريق، ولكان رأى أيضا لب الحاج وهو يطير عندما اكتشف انفراط عقد السلسلة الفضية غالية الثمن وانفلات النفحة من قبضتها. ساعتها انفرد به ذلك الشبح واخذ يتقاذف قلبه بين أصابعه، وسد عليه كل طريق؛ فأخذ الحاج يدور في حلقات حول نفسه قد شعر بأن الأرض قد انشقت من تحت قدميه، والسماء قد تهاوت فوق رأسه، وسار هائما كالسكاري، وهو يبحث عن النفحة. ارتمى على الأرض ينبشها بعينيه في عتمة الليل، مزق أديمها بأظفاره وخمش أديم وجهه بكلتا يديه، أهال التراب فوق دماغه وهو يشعر وكان كل مصائب الدنيا سوف تنهال على رأسه ..... لا ..... لن يخسر كل ما كسبه على مر حياته غمضة عين ..... أخذ يجري خارجا من القرية دون أن يصلي صلاة الفجر، وهو يصرخ كمن يتخبطه الشيطان من المس باحثا عن الربع جنيه المخروم.

شعبطة

حل رابطة العنق والزر العلوي لقميصه ليفسح مجالا لصدره للشهيق والزفير، واستند بظهره إلى أحد أركان المصعدة وقد أنهكه السهر والعمل. وعلى الرغم مما لحق بهندامه ومما بدا عليه من إرهاق إلا أن سيماء المهابة والوقار مازالت تعلم هيئته، وزاد منها خيوط الفجر التي لاحت بين سواد شعره الحالك والذي انثالت منه خصلات على جبينه الذي تفصد عرقا. فتح باب المصعد عند وصوله إلى الدور الأرضي، وأسرع فرد الأمن ليحمل عنه الحقيبة التي اعتاد أن يحملها حتى باب سيارته والتي تقف على مقربة من المبنى، وقد زادت مهابته مع انتصاب قامته الطويلة، وسير فرد الأمن خفيض الرأس أمامه حتى يضع الحقيبة داخل السيارة، ثم ابتعاده وهو يكيل له عبارات الشكر والثناء وقد تحول انخفاض الرأس الى ما يشبه الانحناء الكامل. فتح باب السيارة وكاد أن يركبها عندما توقف فجأة ..... وتحول إلى واحد من تلك التماثيل الشمعية دقيقة الصنع وقد تصلبت عيناه و أطرافه بل وحتى أفكاره وهو يراقب ذلك المشهد، ولكن فجأة أيضا بعثت الحياة في ذلك التمثال وصفع باب سيارته الفارهة وانطلق يجري بكل طاقته غير ملتفت لما اعترى فرد الأمن من الدهشة والذي فغر فاه وعينيه عن آخرهم غير مستوعب ولا مصدق لما يجري أمامه.

في البداية شعر أنه فقد مهارته أو نسيها بسبب تطاول الأيام وأحس أنه لن ينجح، ولكنه تذكر كيف كان يفعلها فنقل مركز تفكيره من رأسه إلى قدميه وعندما تذكرتا أنهما كانتا جناحي ذلك الطائر القديم انطلق في الهواء محلقا وعندما بدأ في الهبوط بسرعة في اتجاه الأرض تلقفته عشرات الأيدي التي امتدت إليه لتساعده كي يتشعبط في الأتوبيس.

لا يدري أية لوثة أصابت عقله، ولا أي عفريت من الجن قد مس قلبه عندما رأى ذلك الأتوبيس المتخم بالبشر وهو يتوقف عند المحطة فاتحا أبوابه ليلتهم من يقفون على المحطة غير آبه لبطنه التي تضج بما فيها حتى لتكاد تنفجر. كانت المحطة لا تبعد سوى خطوات قليلة عن المكان الذي يوقف عنده سيارته. وعلي الرغم من أنه لمح هذا المشهد مرارا وتكرارا إلا أنه لا يدري ماذا اعتراه هذه الليلة تحديدا. فعندما وجد الأتوبيس يتوقف ورأى ذلك اللحم البشري المفروم يتدلى منه وجد رغبة عارمة في أن يلقى بنفسه كما اعتاد في الماضي بين الناس، حيث كان معتادا على الشعبطة، كل أنواع الشعبطة.

الحقيقة أن الشعبطة لم تكن عادة لديه بل كانت الخيار الوحيد المتاح في أغلب الأوقات حيث كان لا يجد لجسده مكانا يمكنه أن يحشره فيه داخل المواصلة سواء كانت أتوبيسا أو ميكروباصا أو عربة ربع نقل. أذهلته ذكرياته عن تلك الرؤوس الملتوية والعيون المحملقة التي أخذت تجيل النظر في أرجائه متعجبة عما يضطر مثل هذا البيه - بل الباشا - أن يلقي بنفسه في هذه المعمعة.

تذكر ذلك الميكروباص الذي كان يتشعبط فيه أيام المدرسة، أتقن في هذه الفترة كل فنون الشعبطة في الميكروباص والذي كان وسيلة المواصلات الوحيدة التي عرفها في تلك السن. كان يتمسك بذلك الجزء المعدني الناتئ من السقف مرتكزا بأطراف أصابع قدميه على حاجز الاصطدام الخلفي كأنه أحد مهرجي السيرك وهو يسير على الحبل، والفارق إنه في السيرك تنبهر أنفاس المتفرجين عند رؤية المهرج أما على الميكروباص فالكل مهرج وما من متفرج واحد.

أما في الميكروباصات التي كانت لا تمتلك هذا الجزء الناتئ كان يضطر أن يتشبث بأقرب نافذة تطالها يده وتظل الأخرى حرة وكأنه لاعب روديو محترف وكان هذا من أسوأ الاختيارات التي يقابلها ولا يضطر لها إلا إذا لم يجد بديلا آخر. أما المتعة الحقيقية فكانت في الميكروباصات التي لها سلم في الجهة الخلفية حيث كان يسمح له بالتشبث هو وأحمد فرج بقوة وتمكن مما يمكنهما من المزاح مع بعضهما البعض مزاحا ثقيلا دون الخوف من السقوط تحت عجلات السيارات التي تطاردهم من الخلف.

أتاحت له تلك الفترة الطويلة في المدرسة ما بين الابتدائية والإعدادية والثانوية أن يتمرس على هذا الفن، كما اكتسب العديد من الصداقات عن طريق الشعبطة والتي استمر بعضها لفترات غير وجيزة، فمعرفته بمحمد خليل والتي استمرت لما بعد الجامعة بدأت في أحد الميكروباصات ذي النتوءات، وصداقته بزميل البعثة على حسنين بدأت في أحد الميكروباصات الخالي من النتوءات ولكن أيضا كانت نهاية صداقته بأحمد فرج على أحد الميكروباصات ذات السلالم، تلك الصداقة التي بدأت في الحضانة - حيث لم يكونا قد عرفا الشعبطة بعد واستمرت حتى الصف الأول الثانوي حيث انتهت بعد مزاح شديد الثقل كاد أن يدفع فيه حياته. ولكنه كان يعرف أن الميكروباص بريئا من تلك القطيعة بل كان السبب الحقيقي هو تلك الشلة التي تعرف عليها أحمد عند دخولهما

المدرسة الثانوية والتي كانت بعيدة كل البعد عن طباعهما التي اعتادا عليها وعندها بدأت طباع أحمد بالتحول تدريجيا وكانت النهاية على سلم الميكروباص.

أفاق من ذكرياته على صوت يطلب منه أن يفسح الطريق لأن البعض يريد النزول. اندفع طوفان من البشر نازلا من الأتوبيس بينما صعد القليل مع اقتراب الأتوبيس من محطته النهائية، وعندها أتيحت فرجة بين الركاب؛ ولمعرفته قواعد اللعبة كان يعلم أنه مادام هناك فراغ بين الركاب داخل العربة فغير مسموح له بتاتا الوقوف على السلم والشعبطة؛ فاضطر صاغرا أن يحشر نفسه بين الأجساد الساخنة اللزجة. شعر بجسده يستعيد مرونته القديمة وهو يتلوى كالثعبان ليحشر نفسه في ذلك الشق المتاح بين الأجساد. تصفح الوجوه فوجدها تقريبا كما تركها آخر مرة ولكن صار تقطيبها أشد مما كان. لمح لون الجلد الذي يكسو المقاعد، كان رماديا لامعا مزدانا بقطعتي جلد لونهما أصفر فاقع ينحدران من رأس المقعد ويختفيان خلف ظهور الجالسين ولا يدري أين منتهاهما. تذكر اللون القديم الذي طالما كسا تلك المقاعد وهو اللون الأحمر والذي كانت تتراوح حمرته ما بين الفاتح والغامق ولكن كان اللون في أغلب الاحوال لونا حائلا كوجوه الناس الآن. استرعى لون المقاعد انتباهه لأنه كان يلاحظ تغير ألوان الأتوبيسات أثناء سيرها في الشوارع أما المقاعد فكان الأمر يتطلب منه الركوب حتى يلحظ ذلك التغيير. واسترعى انتباهه أيضا ذلك الفتى الذي ما يزال في شرخ الصبا وقد تمايلت إلى جواره سيدة متقدمة في السن تكاد لا تتمالك نفسها من الإعياء ولا تتحمل تأرجح الأتوبيس بسبب المطبات وتمسك بقطعة معدنية مقتضبة في حجم قبضة اليد الواحدة والتي تبرز من المقعد وتكفى بالكاد لتمسك بها، كانت القطعة المعدنية في الماضي سخية تكفي لكي تتشبث بها تلك السيدة بكلتا يديها بل وتفيض، على الرغم من أن وقتها لم يكن أحد ليسمح بوقوف تلك السيدة وهو جالس بهذه الصفاقة.

والحقيقة إنه في أول مرة ينضم لمحترفي ركوب الأتوبيس والتي كانت أيضا أول مرة يذهب للجامعة بعد أن تم قبول أوراقه في الكلية التي طالما حلم بدخولها، تعرض لهذا الموقف وحينها كان لا يملك خبرة كافية ولم يكن يعرف هل ينهض ليجلس تلك السيدة أم يتشاغل عنها وكأنه لا يراها، لولا أن كان بصحبته هو ومحمد - زميله - علي أخو محمد الكبير والذي كان يسبقهما بعامين حتى يكون المرشد لهم للتقديم في الكلية، وقتها نهض وأجلس السيدة. وظلوا جميعا يفعلونها اقتداء بالأخ

الأكبر على الرغم من ندرة جلوسهم من الأساس. وظل لفترة يتساءل هل هذه العادة كانت فاتحة الخير عليه أم كانت سببا في شقاء دام طويلا.

فقد كانت سببا في أن يذوق طعم الحب لأول مرة. ففي مرة من المرات النادرة التي تمكنوا فيها من الجلوس ثم اضطروا للنهوض وترك أماكنهم لبعض كبار السن والذين غص بهم الأتوبيس حينها، وأخذت جموع الناس تتزايد وتدفعهم إلى باب الأتوبيس - وهم راضون- حيث الهواء النقي، حينها مروا على إحدى الكليات الكائنة في طريقهم، وعندها رآها وهي تقترب من الأتوبيس وصعدت وحشرت نفسها قبالته. لم يدر ماذا يفعل وقتها كانت أحاسيسه مختلطة وكان يغلفها شعور بالشفقة إزاء ذلك الملاك وما يقاسيه من عذاب أرضي مهين من خلال الشعبطة. كانت أول مرة يفقد إيمانه بالشعبطة وأنها فن فخور أنه يجيده. كانت أول مرة يشعر فيها أنها مصير غاشم، قضاء لا مفر منه ولا مهرب. بدأ الأمر بينهما كما يبدأ دوما وانتهى أيضا كما ينتهي دوما. ولكنه ظل يحمل بين طيات قلبه ذكريات ترطب فؤاده. يتذكر وقوفهما معا عند الباب يتناغيان ويتضاحكان ويسرد كل منهما للآخر ما مر عليه خلال يومه، شعر بالأجساد تفعصه والأيادي تناوشه فتمثل الذكرى بحذافيرها. تذكر كيف لم يكتفيا بما تمن عليهما الأيام من لقاءات عند اتفاق جدوليهما، فأعدا لهما على استحياء جدولا للقاء بعيدا عن الأتوبيس. تذكر لقاءهما على سلم الأتوبيس الأمامي وهو يخبرها بنجاحه وتخرجه الأول على دفعته. وتذكر لقاءهما على السلم الخلفي وهو يروي لها وهو كسيف البال كيف تم التلاعب ليتخطاه الدور في التعيين في الكلية إكراما لابن أحد الأساتذة. وأخيرا تذكر نزولها من الأتوبيس وهي تودعه بعينين ملؤهما الدموع. كانت هذه آخر مرة يقابلها فيها وكذلك آخر مرة ركب فيها أتوبيسا حيث عاد للميكروباصات مرة أخرى.

أما شعبطة الربع نقل فقد سارت بالتوازي مع الميكروباص والأتوبيس. حيث إنها خلافا لهما لم تحتل فترة زمنية معينة بل احتلت فترة مكانية. حيث إنها هي المواصلة الوحيدة المتاحة في بلدته الريفية. كان يركبها عند توجهه من المدينة الرئيسية إلى قريته الصغيرة في الزيارات الصيفية أو بالعكس عن عودته من القرية إلى القاهرة، وكثيرا ما كان يتشعبط في خلفيتها هو ومحروس ابن عمه والذي كان بمثابة أخيه. والشعبطة في الربع نقل تشبه الشعبطة في الميكروباص ذي السلم إلى حد كبير، حيث إن الصندوق الخلفي لها يُغطي بقفص مكون من مواسير معدنية ملحومة ببعضها البعض، ويُكسى هذا القفص المعدني بقطعة كبيرة من القماش المتين لتحمي الجالسين من الهواء

العاصف الناتج عن سرعة السيارة على الطريق السريعة التي تربط القرية والمدينة، وتحمي أعينهم من الأتربة. وهذه الحماية تتاح فقط للجالسين داخل القفص المعدني أما هو ومحروس فغالبا ما كانا يتلقيان كل الأتربة في أعينهما جراء شعبطتهما خارج الصندوق المعدني مما يجعل رأسيهما في مستوى أعلى من مستوى الحماية التي يتيحها الصندوق. ولطالما امتلأت أعينهما بالتراب عند نزولهما إلى المدينة لمشاهدة الأفلام أو عند ذهابهما لشراء بعض الملابس سواء لأم محروس أو بناته الصغيرات، أما ملابس زوجته فغالبا ما كان يذهب وقتها محروس هو وزوجته بمفردهما من أجل التسوق وأيضا للاختلاء ببعضهما بعيدا عن البنات اللائي يتركهن مع زوجة عمه. حكى له أثناء رحلات الشعبطة تلك عن حبه بداياته ونهايته وعن الظلم الذي لحقه في الجامعة، كما حكى له أيضا عن الدنيا التي ابتسمت له أخيرا حيث استطاع الحصول على بعثة دراسية قد تقلب حياته رأسا على عقب بعد أن ظل يتجرع مرارة الفشل والإحباط لسنين طوال. كان عندما يشتد الزحام على العربة يتسلق بعض الركاب المغامرين سقف القفص المعدني ليجلس فوقه ولكن هذا كان يعرضه إلى كم من الأتربة وعواصف الهواء التي لا قبل لأحد من غير المتمرسين على هذا النوع من الركوب أن يقدر عليه أو يتحمله. ولطالما فكر في خوض تلك المغامرة ولكنه كان يتردد، ولم يقبل عليها بإرادته قط على الرغم من رغبته الشديدة في تجربتها، ولكنه اضطر إليها مرتين فقط في حياته. الأولي كانت في فرح محروس، حينها قدم إلى البلدة بصحبة محمد وعلي وذلك ليعرف أخواه القاهريين بأخيه الريفي هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليقدم لهما تجربة شعبطة لم يخبراها من قبل. وعندما تزايد المعازيم الذين سيزفون العروسين أضطر وقتها أن يتسلق القفص بعد أن كان متشعبطا فيه ليفسح مجالا لمتشعبطين آخرين. ولأنه كان مستجدا في الموضوع كاد أن يسقط أثناء تحرك السيارة وكاد أن ينقلب الفرح مأتما، ولكن الله ستر. وبدلا من أن يترحم عليه المعازيم راحوا يمازحونه ويتندرون بالموقف وذكروا أنه كاد أن يموت تقريبا نفس موتة كسبان أبو منصور عندما كان عائدا من المدينة بلوح من الأبلاكاش فوضعه فوق الصندوق المعدني وجلس فوقه وعندما اشتد الهواء؛ ارتفع طرف لوح الأبلاكاش قليلا فتمكن الهواء منه وطار اللوح وفوقه كسبان وكأنه يركب بساط الريح، ثم سقط زرع بصل على الطريق الأسفلتية فمات في الحال. كانت هذه أول مرة يسمع اسم كسبان وأباه منصور وكانت آخر مرة أيضا، ولكنها لم تكن آخر مرة يعتلي فيها الصندوق المعدني، بل اعتلاه مرة أخرى عندما ذهب يشيع جنازة محروس والتي كانت جنازة تفطر القلوب والجميع ينعى فقيد الشباب الذي كان

يملك قلوب جميع أهل القرية، وقتها انسابت الدموع غزيرة من بين جفنيه وزاد من غزارتها عواصف التراب التي وأدت أبناءها في عينيه حيث كان مكشوفا بلا ذلك الغطاء القماشي الساتر، وشاطره على البكاء والعواصف وكان الوحيد الذي تبقى له من صحبة الشعبطة، جاء أخوه القاهري ليودع أخاه الريفي. أفاق من ذكرياته بوصول الأتوبيس إلى محطته النهائية، فكر للحظة أن يعود مع الأتوبيس في طريق عودته ولكنه شعر إنه لن يمكنه أن يخوض التجربة مرة أخرى، فهبط مع الهابطين وسار مع السائرين وابتعد مع المبتعدين، وأشار لإحدى سيارات الأجرة وركبها إلى حيث ترك سيارته وحياته، وعندما عاد إليهما وهم بالنزول ودس يده في جيبه حيث توجد حافظة النقود، عندها أطلق ضحكة مدوية وقهقه بصوت مرتفع وهو يخرج يده خاوية، بينما أخذ سائق الأجرة يتطلع إليه فاغرا فاه وعينيه وهو لا يعي شيئا مما يحدث أمامه.

متوالية هندسية

«رأسي: كلمة من خمسة حروف، تمزق الأوصال، تبعثر الأشلاء، تشرد الأطفال، تثكل النساء.

أفقي: كلمة من ثلاثة حروف معكوسة، تأكل الأخضر واليابس، تجف العرق والضرع، تلتهم الأطفال، تنتهك النساء.

الحل: قنبلة، حرب.

لكن هل هما حقا الحل..... أم المشكلة؟"

هكذا بدأ موضوع التعبير الذي طلبه منه المدرس. ينتظر درجته بفروغ الصبر ولا يكاد يطيق الانتظار لدرجة إنه فوت على نفسه الأسبوع الثاني على التوالي من حصة الألعاب من فرط لهفته وقلقه انتظارا للنتيجة، وها هو ينتظر دخول المدرس إلى الحصة؛ فموضوع التعبير هذا سيحدد مستقبله في الفصل لهذا العام بل وربما للأعوام القادمة أيضا. كان يؤمن دوما إن المدرسة الثانوية بداية أي شيء أو نهاية كل شيء لذا أراد أن تكون مختلفة عن أختيها الأصغر منها. ولطالما أحب موضوعات التعبير وكان يتفنن فيها ولكن لم يكن أحدا يقدرها ولا يقدره سوى عمه، والذي صار أديبا كبيرا بفضل تشجيع مدرس اللغة العربية له في الثانوية:

- كان بيطلب مني إني أقوم قدام الفصل كله وأقرا موضوع التعبير بتاعي، فى الأول كنت بتنفض ورجلي كانت بتخبط ف بعضها، والموضوع كان بسيط ومش جميل قوي، بس هوه شجعني لما حس إني شاطر في التعبير، وقال لي وهو بيطبطب على ضهري "والله مش بعيد الواد المفعوص ده يبقى أديب مشهور وندرس سيرته في كتاب القراءة ه هههههه."

كان يستمع لحكايات عمه بقلبه قبل أذنيه وقد أمسك بيده وهو يطوف به في عوالمه البديعة مثل نادي القصة، مقاهي الأدباء والفنانين، الأمسيات الأدبية، كورنيش النيل، النيل. لذا كان ينتظر الثانوية بصبر مملوء بالأمل؛ حتى يتخلص من مدرسي الإعدادية برؤوسهم الأضيق من ملعب مدرستهم. لذا عندما طلب منه مدرس اللغة العربية كتابة موضوع لتسليمه في أول "حصة تعبير" قرر أن ينذر حياته لهذا الموضوع حتى موعد الحصة. حرم نفسه من كل المتع المدرسية والمنزلية حتى ينهي هذا الموضوع، فيرتب أفكاره ما بين المدرسة والبيت؛ ويرتب حروفه وكلماته ما بين الحصص؛ يدور حول نفسه في حجرته محدثا إياها؛ ويدور في الشوارع مخاطبا شياطينه؛ بل كان

ينسى نفسه في الحمام ويظل يتحاور مع قرينه حتى تنهره والدته من شدة خوفها عليه لتستحثه على الخروج.

لجأ إلى عمه ففتح له مغارة على بابا، فانتقى منها ياقوتة متوسطة الحجم. مذكرات طبيب ياباني شهد أحداث هيروشيما فوصف ما عانوه من ويلات، وكيف ظل يدور حول نفسه في البداية غير مستوعب لما يحدث حوله ولا يدرك ماذا حل ببلده بالضبط وهو يرى ذلك الرجل متفحما على عجلته أثناء سيره، وتلك الظواهر العجيبة المستحدثة التي ظهرت على البشر فأسموها أمراض الإشعاع وما بطن كان أعجب. رأى الطبيب ما لم تره عين وسمع ما لم تخبره أذن، وعندما حان موعد الفهم تمنى لو أنه لم يفهم.

عاش ويلات الحروب وظلمها في اليابان، وانكساراتها وغدرها في النكسة والصحراء، وفرحتها وعدالتها في أكتوبر، عاش عقودا طويلة في أسبوع واحد. حرم نفسه من أول حصة ألعاب في المدرسة وهو يعلم تماما ما تعنيه أوائل الأشياء في الحياة المدرسية إنها تعني الحياة ذاتها وحرمانه من الأوائل قد يؤدي لحرمانه منها طوال العام بعد أن يكون قد انتهى الطلاب من "تتفيق الفرق" والتعرف على مهارات بعضهم البعض، فيصبح بعد ذلك اليوم كالغريب المنبوذ الذي لا مكان له بين القطيع. رضي بالهجر والتيه من أجل عيون التعبير. جلس على منصة العَلَم الواسعة المتصدرة ملعب المدرسة ليضع اللمسات الأخيرة قبل تسليم كراسته التي سيسلمها بعد انتهاء حصة الألعاب مباشرة، وأسند ظهره إلى سارية العلم المنتصبة في منتصف المنصة والتي يعلوها علم مغمض العينين منكس الرأس، حيث إنه لم يكن في أوقات العمل الرسمية.

ظل للحظات يتابع زملاءه وهم يلعبون، واستعاذ بالله ولاذ بكراسته من شيطان اللعب. لقد تفاءل بهذا الملعب عندما رأه لأول مرة حيث قدر إنه يتسع لأكثر من عشر مجموعات للعب الكرة، عكس ملعب الإعدادية الخانق "المخنوق" والذي كان يكفي بالكاد لمجموعة واحدة، تمنى لو أن عقول مدرسي الثانوية في سعة ملعب المدرسة، فساعتها سيظل يلهو بكراساته كما يحلو له. دخل المدرس الفصل؛ فكاد قلبه يتوقف من فرط الإثارة، وزاد من التشويق أن المدرس رفض توزيع كراسات الإجابة حتى لا يضيع وقت الحصة في مناقشة كل من لا تعجبه درجته، ولكن هبطت الدرجة على رأسه كقنبلة مدوية في نهاية ا على 5 من 10 أخذ يتلفت في البداية حوله غير مستوعب لما يجري من حوله ولا ماذا ألم به، ولكن بعد أن بدأ يلملم أشتات نفسه، نشبت في قلبه نار بدأت تأكل أحشاءه

وكادت أن تأتي عليه حيث كاد يندفع إلى المدرس موبخا أياه موضحا خطأه الفادح في حقه وحق موهبته وكان على استعداد لدفع الثمن مهما كانت فداحته. لولا تلك الرهبة التي اعترته وشلت أطرافه وألجمت لسانه. أخذ يتفحص كراسات زملائه فاكتشف ذلك النظام الهندسي الدقيق الذي اتبعه المدرس في تصحيح الكراسات حيث كانت الدرجات تسير وفق نظام ثابت 5، 7، 9 - 5، 7، 9 - 5، 7، 9 - ..... وهكذا دواليك. عندها شعر برهبة تتملكه خوفا من أنه باعتراضه هذا سيؤدي إلى كسر ناموس من نواميس الكون.

وقفتُ في لجنة الإمتحان أنظر إلى قعر طبق التشريح الخاص بي، سارحا في طبقة الشمع الراقدة في أسفله، أعد الثقوب التي خلفتها الدبابيس التي استخدمتها طوال العام. رحت أنقر بتوتر رأس برطمان السبرتو الأحمر. فتحت علبة الدبابيس ونثرت عددا منها على منضدة التشريح، ثم تناولتها واحدا تلو الآخر ورحت أغرزها بعنف في طبقة الشمع، ثم ما لبثت أن نزعتها بحنق وألقيتها مرة أخرى على منضدة التشريح. رحت أتطلع إلى الطلبة والأساتذة الذين يقطعون طرقات الكلية من النافذة الزجاجية المغلقة خلف ظهري. أشعر أني لا أعرفهم. لا أشعر بالألفة تجاههم، رغم أني صادفت العديد منهم عدة مرات في طرقات وأروقة الكلية، بل وتحدثت مع بعضهم. لكني لا أنتمي إليهم. بل لا أبالغ إن قلت لا أحبهم. تذكرت تلك المرة التي ذهبت فيها إلى كلية الفنون بصحبة صديقي. أخذت أتطلع إلى الوجوه. كدت أحتضنهم جميعا. فأنا أعرفهم وأنتمي إليهم رغم أنها المرة الأولى التي أراهم فيها. وللأسف كانت المرة الأخيرة أيضا. فرغم إلتذاذك بمداعبة تلك البثرة التي تلازم وجهك وتطالعك كل صباح في مرآة الحمام، إلا أن مداعبة الجرح تمنع شفاءه. فمنعت نفسي قهرا من الذهاب لعلي أشفي من تلك الغنغرينا التي ضربت بجذورها في روحي. غامت روحي وأنا أتذكر ذلك اليوم البعيد. رفعت رأسي إلى أعلى طلبا لهواء يرد روحي المسلوبة لكني سحبت إلى رئتي كل الهواء النتن من الحجرة سيئة التهوية، ثم طردت جميع أحشائي مع تلك الزفرة الحارة التي خرجت من فمي. بدوت كتمثال بشري يتوسط نافورة من الحمم البركانية، ويتدفق من فمه ذلك السائل القاتل الكفيل بتدمير كل من حوله في غضون ثوان معدودات.

طاف علينا عامل المعمل بصندوق الموت الكئيب الذي اعتاد حمله منذ أن عمل في تلك المقبرة. مد جميعنا أيديهم داخل الصندوق وتناول كل منا أقرب ضفدعة تقع عليها يده. أمسكت بضفدعتي ووضعتها على منضدة التشريح ورحت أتأملها كالمعتاد وأنا أحسدها لأنها ستنتقل بعد ثوان معدودات إلى مكان أفضل. وضعتها داخل البرطمان الزجاجي في وسط السبرتو الأحمر وأحكمت إغلاق البرطمان وانتظرت حتى تفقد وعيها. رغما عني شعرت بالشفقة نحوها. حتى الآن لا أستسيغ ذلك الذي يجادلونني فيه بأنه مادامت الغاية سامية، فلا يهم عدد الأرواح التي ستزهق في هذا السبيل.

بدأ المعيدون في توزيع أوراق الأسئلة الخاصة بامتحان التشريح العملي. عندما نظرت في ورقة الأسئلة الخاصة بي استشطت غضبا. ورحت أدور حول نفسي وأنا أكاد لا أصدق هذا السؤال

أمامي. كيف يأتونني بمثل هذا السؤال. فقط يريدون مني الكشف عن الأحشاء الداخلية للضفدعة. أين ذهبت كل تلك الشرايين والأوردة والعقد التي كنا نتدرب عليها طوال العام. أين الوريد البطني الأمامي وأين الوريد القنزعي. لو كان السؤال صعبا لطويت الورقة ورحت أبكي ضعفي وقلة مذاكرتي وصعوبة الكلية. أما الآن فالسؤال أسهل من أن أفعل هذا. فقط يطلبون الأحشاء الداخلية؟! ما علي سوى شق بطن الضفدعة وتدبيس جلدها إلى الشمع، ثم قص الجدار العضلي وفقط. وهكذا سأنجح في الإختبار رغما عني. كدت أبكي وقد شرعت في تنفيذ ما طلب مني.

بينما دار المعيدون حولنا لمتابعة ما نفعل، دخل المعمل دكتور المادة. راح يوزع على جميع من في المعمل تلك الابتسامة الباردة المطبوعة دوما على شفتيه، وقد وضع يديه في جيب معطفه الأبيض الذي لا يخلعه أبدا وكأنه يقول للعالم أجمع "طبيب وأفتخر". بمجرد دخوله لاحظت نظرته لي من بعيد وقد راح يتفحصني بإمعان وبعدها اتسعت ابتسامته وزادت برودتها. راح يدور على الطلبة هو الآخر وهو يسأل كل طالب أسئلة نظرية عن المطلوب منه تنفيذه ومن خلفه معيد يسجل الدرجة التي يهمس له بها دون أن يخرج كفيه من جيبيه. راح يقترب مني ومع اقترابه راحت ابتسامته الباردة تتسع وتزداد برودة. نظر في ورقة الأسئلة ثم الضفدعة الممدة على ظهرها مبقورة البطن، وفي النهاية رفع رأسه وسألني مبتسما ببرود:

- ما جنس هذه الضفدعة؟

نظرت إلى كيس البيض في أحشائها وقلت وأنا بالكاد أكتم نافورتي من الثوران:

- أنثى.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- بلغت أم لم تبلغ؟

نظرت إليه ببلاهة في انتظار أن ينفجر ضاحكا ليخبرني أنه فقط يمازحني. لكنه ظل مصوبا سلاحه البارد في مواجهتي، فعلمت أنه جاد في سؤاله. فتشت في رأسي عن أية معلومة بشأن بلوغ الضفدعة فلم أجد. يبدو أن تهربي من المحاضرات وإعراضي عن الكتب قد أتي بثماره. استدار وابتعد عني وهو يقول:

- فكر في الإجابة حتى أعود إليك.

زاد هذا من تعجبي، فمع باقي الطلبة كان يقف في انتظار الإجابة، فلماذا تركني؟ من أدراه أني لن أغش الإجابة من أحدهم؟ رحت أفكر في إجابة أو مهرب، لكن دون جدوى، بينما راح يراقبني من بعيد وهو مستمر في توزيع برودته وافتخاره على باقي الطلبة.

كيف وصل بي الحال إلى هذا الوضع. بينما كنت أنشد الجمال في خطوط زهرة أو وجه حسناء أو حتى كتل لونية لا تعني أي شيئ لأحد سواي، فإذا بي أغوص في مستنقع من الفورمالين وصبغ الحياة الأحمر القاني وأمراض القلب والرئة والكليتين. كيف أهرب من جحيم الآخرين إلى فردوس ذاتي؟ فجأة طرأت في رأسي فكرة مجنونة قد تكون سبيل الخلاص إلى الأبد. رحت أتمثله عندما يقترب مني ويعيد السؤال مرة أخرى فأرد عليه بالإجابة التي أدخرها له. رحت أنمّق الإجابة قدر استطاعتي، ليس لأجعلها أفضل، بل لأجعلها أكثر إثارة للغيظ والاستفزاز. عندما اقترب ابتسمت له ببرود مودعا ابتسامته التي لن تظل كثيرا فوق شفتيه مع ردي الذي سيطير لبه وسيجعله يغضب ويثور ربما لأول مرة في حياته.

- عرفت الإجابة أم لا؟

تصنعت الجدية وعدلت نظارتي الطبية وقلت له:

- كما تعلمنا من أساتذتنا أن الفارق بين الفلسفة والعلم القديم من جهة والعلم الحديث من جهة أخرى هو التجريب. فلا يمكننا أن نقطع بمعرفتنا بشئ ما من عدمها إلا بمقدار ما تخبرنا التجربة عنه. لذا فأرى لمعرفة إن كانت تلك الضفدعة قد بلغت الحلم أم لا سأجري تجربة سريعة وفريدة من نوعها. سأضاجع الضفدعة الآن وننتظر عدة أشهر، فإن حملت فسنعرف أنها بلغت وإلا فستكون مازالت قاصرا لم تصل للبلوغ بعد.

بدلا من أن تختفي ابتسامته من على شفتيه وجدتها تتسع وتزداد برودة، حتى أني شعرت بقطرات العرق التي تسيل على جانبي وجهي قد تجمدت وقد اقشعر بدني وانتصب شعر جسدي كله وهو يجيبني:

- ومن أدراك أنها لو لم تحمل فسيعني هذا أنها لم تبلغ؟ ربما كانت عاقرا. أو ربما كنت أنت شخصيا لم تبلغ الحلم ولست قادرا على تخصيب أي كائن حتى ولو كان ضفدعة.

اتسعت عيناي وأنا أكاد لا أصدق ما أسمعه لكنه مال علي مواصلا كلامه:

- كل عام يرد أمثالك علينا. أعرفهم بمجرد أن ألقاهم في طرقات الكلية أو أروقة المباني أو قاعات الدرس. وربما تأخر لقائي بهم حتي نأتي إلى قاعة الإمتحان. عندها أسألهم نفس السؤال، ودوما أتلقى نفس الإجابة، وأهمس في أذنهم بنفس الرد واقترب من أذني وهمس قائلا "لن أتخذ قرارك نيابة عنك".

استدار وهم بالانصراف تاركا إياي مسمّرا في مكاني. التفت إلى مرة أخيرة وقال:

- بالمناسبة كيس البيض شفاف، لو أنها بلغت لكان تحول إلى اللون الأسود.

انصرف من أمامي واتجه إلى خارج معمل التشريح. تابعته بعيني وهو يخرج ويغلق الباب خلفه، ثم تبعته من خلال الزجاج الشفاف للمعمل. عندها وجدته يتوقف ويخرج يديه من جيبه وقد اختفت ابتسامته الباردة من على وجهه ويرفع رأسه إلى أعلى ويقف كأنه تمثالا بشريا يتوسط نافورة من الحمم البركانية وقد وقف ينفث حمم الغيظ والغضب بعيدا عمن حوله حتى لا يؤذي أحدا.

مديرة لوفتهانزا

- "شركة كبيرة ومش قادرين تغيروا حاجة بسيطة زي ديه؟"

هكذا صرخ أسعد وهو يقف في فرع الزمالك لشركة الطيران الألمانية لوفتهانزا.

- مانقدرش نكسر النظام

هكذا ردت الموظفة.

- أنا عاوز المدير بتاع المكان ده

راح يصرخ بتلك العبارة، حتى باغته ذلك الصوت العميق الجاف الفصيح بركاكة من خلفه

- ماذا تريد يا هر أسعد؟

عندما التفت وجد أمامه سيدة ألمانية في غاية الأناقة وكبر السن تضع منفضة من الريش تحت إبطها وقطا شيرازي فوق كتفها، فارتعد أسعد رغما عنه.

لم يدر أسعد متى وكيف دخل حجرة المديرة، فقط وجد نفسه هناك جالسا على الكرسي أمام مكتبها بينما جلست تلك الحيزبون الألمانية خلفه.

- أتدري يا هر أسعد، لطالما شعرت بالغربة طوال عملي في أوروبا وأمريكا، ولم أشعر بأني في موطني الحقيقي إلا في بلادكم.

ابتلع ريقه وهي تنهض مقتربة منه.

- أتعلم من هذه؟

نظر إلى الصورة المرسومة المتهالكة والمحفوظة داخل إطار أنيق على سطح مكتبها وقد بدا عليه الترقب والحذر، تنهدت بأسى:

- إنها جدتي، اتهموها في العصور الوسطى بالسحر، أتعرف ما مصير الساحرات وقتها؟

لم تهتز شعرة واحدة في جسده منتصب الشعر، فأكملت

- يقيدن ويغمرن في النهر، فإن غرقن، ثبتت براءتهن. وإن نجين، يحرقن.

مسحت على الصورة في حنان:

- ورثنا عن جدتي هذه القطة اللطيفة التي أحملها على كتفي، وذلك بعد أن أحرقوها.

جحظت عيناه وسال العرق غزيرا على صدغيه

- أتدري ماذا تركت أيضا؟

مالت هامسة:

- هذه المكنسة السحرية التي كانت تجوب بها الأرض في غمضة عين.

تراجع فزعا

- لقد طلبت طلبا بسيطا هر أسعد، وسألبيه لك.

جلست قبالته وقالت

- ليس من المقبول في عصرنا أن نمتطي مكانسنا ونطير كيفما شئنا، فتقلصت هذه المكنسة لكنها مازالت تحتفظ بقوتها كما هي. وعن طريق هذه المنفضة السحرية سأهبك قوة لم تحلم بها يوما.

عقد حاجبيه.

- هل تؤمن بالعلم؟

تردد ثم هز رأسه إيجابا، فابتسمت:

- أتعلم، لقد ظللنا نخدعكم لقرون طوال، وسلبناكم كل علومكم الحقيقية التي مكنتكم في الماضي من تحقيق معجزاتكم، وأقنعناكم بأن القوة الحقيقية في العلوم الحديثة. سلبناكم طلاسمكم السحرية الفعالة وشغلناكم بطلاسم رياضية وفيزيائية لا طائل من ورائها. العجيب أنكم لم تفطنوا أننا أخذنا أعز ما لديكم، الإيمان.

أشارت إلى نموذج مصغر لطائرة على سطح مكتبها:

- جدي كان من أهم مصنّعي الطائرات. تظنون أن صنع طائرة جيدة يستلزم معرفة فائقة بقوانين الفيزياء، لكن الحقيقة خلاف ذلك تماما. يكفيك فقط أن ترسم بتلك المنفضة حلقات في الهواء حول هذا النموذج الصغير لطائرة وتقول: هابرا كادبرا

ناولت أسعد المنفضة، فقال بتردد:

- هابرا كادبرا

هزت رأسها:

- عليك أن تنطقها بكل ما أوتيت من يقين بعد أن تزيح عن قلبك كل الزيف الذي يثقل كاهله. حينها فقط سيكتمل السحر ويصبح فعالا.

أغمض أسعد عينيه وهو يلفظ الكلمات من قلبه ويقول:

- هابرا كادبرا.

شعر أسعد بتلك الطاقة الهائلة التي راحت تنساب من داخله وشعر بخفة تجتاح كيانه وبجسده يحلق في الهواء، ففتح عينيه سريعا فوجد نفسه جالسا مكانه ولم يتغير حوله أي شيء، لكنه راح يسأل مديرة لوفتهانزا بانفعال:

- هل رأيت ذلك؟ أشعر أنني طرت؟ هل طرت بالفعل؟

ظلت المديرة تنظر إليه دون أن تنطق، لكن راحت الدماء تندفع غزيرة في وجهها حتى احتقن محمرا، ثم فجأة انفجرت أمام عينيه..... نعم..... انفجرت في ضحكة هستيرية ساخرة، بينما أحمر وجهه وقد فطن إلى خدعتها وهرول خارجا من عندها.

ورأيت الوجه المظلم للقمر

ها أنت يا بدر تسرع في خطاك لتعتلي ظهر السماء؛ لكي تغمر الأرض بنورك؛ فتضيء لتلك الكائنات الهائمة المسكينة طريقها؟

لكن انتظر! علام العجلة؟! إنك لن تلبث أن تصل إلى الذروة، وتبدأ في إرسال أشعتك الفضية التي تحيل الظلام الحالك إلى غلالة رقيقة قاتمة اللون، وتهدي هذه الكائنات إلى مقاصدها، إلى أهدافها، إلى تلك الأشياء التي تجعل لحياتها معنى، وتجعلها ذات قيمة. أتدرك ماذا ينتظرك؟! فعلياؤك ستجلب إليك تلك السحائب الداكنة والتي ستعكر صفاء وجهك وتحاول إخفاء سناك. هل تتحمل ذلك الجزاء؟!

أتتحمله بعد كل ما تقدمه من عطاء؟! أتتحمله وأنت من أنت؟! أنت الذي تمنع عنهم ضوء الشمس الذي يعمي الأبصار، وتعكسه إليهم فإذا هو شعاع براق يمنح القلوب دفئا، ويجعلها تخفق خفقانا ممتعا، ويمنحها رعدة لذيذة تسري في الأبدان فتكسبها دفئا يغنيها عن حرارة الشمس الحارقة. ولكنهم لا يهتمون بك... لا يشكرونك ... لا يثنون عليك، بل على العكس، إنهم يقولون عنك أنك حجر أصم.... بارد..... كئيب. فإن كنت أصم؛ فلكيلا تسمع أصواتهم المنفرة.... وإن كنت باردا؛ فذلك خير من قلوبهم المضطرمة بنيران الحقد..... وإن كنت كئيبا، فذلك لرؤيتك وجوههم الكالحة.

لكن ماذا ستصنع كي تتخلص من تلك السحب؟! انتظر لا تجب عن هذا قبل أن تجيبني أولا هل تعتلى الأفق كي تضيء للناس طريقها؟! أم أنك ترغب في أن تتعالي عليهم وتتفضل عليهم بنورك؟! إن كانت إجابتك الثانية! فلتختف، فلتذهب، ولا تأبه لأحد، فلتكف عن إرسال نورك، لا تهتم بمن يتخبطون في الظلام، لا تأخذك الشفقة بمن يتعثرون في خطواتهم، فلتمض في طريقك بعيدا عن هؤلاء الذين يؤرقونك، فلتمض ولن يلومك أحد، فلتشح بوجهك بعيدا عنهم، فلتظهر لهم وجهك المظلم. أما إن كانت الإجابة الأولى..... أتدري ماذا أفعل عندما تغلف قلبي تلك السحب، سحب الضيق والحنق والتي تطبق عليه حتى لتكاد تخنقه من الغيظ، وتضغط على أركانه حتى تطرد ذلك الهواء المحبوس في داخله، تطرده على هيئة زفرة ... زفرة حارة ساخنة، زفرة تبدد ذلك السحاب الذي يغلف القلب، زفرة هواء فقط تطرد كل سحائب الحزن التي تحيط بك، فلتختر يا صديقي، إما أن تهرب وإما أن تزفر، إني أنتظر اختيارك يا صديقي.

عندما سمع الكلمة هز رأسه رافعا أحد حاجبيه خافضا الاخر؛ فرد عليه موضحا:

- الرسم على الماء.

ابتسم ساخرا غير مستوعب هذه العبارة المجنونة التي يسمعها وتذكر الضاحك المضحك ابن سودون وهو يقول "وكأننا والماء من حولنا ..... قوم جلوس حولهم ماء". هز رأسه:

- مش هتفهم.. لازم تشوف بعينيك.

وأشار إليه أن ينهض فنهض وأن يتبعه فتبعه وأن يدخل تلك الحجرة التي لم يطأها من قبل فدخل، وأغلق الحجرة خلفهما.

تسمر في مكانه بمجرد أن وقعت عيناه على محتويات الحجرة؛ فقد رأى بأم عينيه سحرا يفوق سحر الفراعين وهاروت وماروت مجتمعين. فقد رأى في تلك الحجرة شبه الخاوية والتي لا تحوي سوى حوض صغير به بعض الماء وبضع زجاجات ملونة، وبعض الأدوات التي لا يدري كيف تجتمع في مكان واحد، رأى فيها العجب العجاب. رأى حبلا ممتدا يشبه حبل الغسيل؛ حبل ضعيف واه، ثبتت عليه مجموعة من المشابك البلاستيكية أضعف منه كثيرا، ولكن فوق هذا الحبل وأسفل تلك المشابك تعلقت مجموعة من قطع الرخام المتباينة المساحات. وقف مبهور الأنفاس وهو لا يصدق ما يراه ولا يستوعبه. لم يكن انبهاره نابعا فقط من تلك المعجزة المتمثلة أمامه، معجزة تلك القطع الرخامية التي لها مساحة وليس لها حجم، معجزة تحمل ذلك الحبل وتلك المشابك لهذه القطع دون أن تهوى مهشمة الأوصال، بل كان انبهاره أكبر بتلك الحياة التي تتراقص أمام ناظريه، لم تكن هناك قطعة تشبه أختها، بل كل منها تحيا حياتها الخاصة ولها قصتها المتفردة. لم يشفق عليه ولم يمنحه فرصة للفهم ولا للاستيعاب بل سلبه حتى فرصة أن يتمالك نفسه فوقف ممشوق القامة أمام حوض الماء الصغير، وأخذت يده الخبيرة تتنقل بين تلك الزجاجات الملونة وأخذ ينتقي من كل منها بضع قطرات بيد ثابتة واثقة لا تعرف للتردد معنى، وأخذ يمزج تلك الأخلاط بنسب موزونة، بيد كأنها كشفت أستار الغيب فأبصرت المستقبل. بدا أمامه وكأنه أحد سحرة ألف ليلة وليلة ينظر في بلورته السحرية، أو أحد عرافي الأساطير الإغريقية اكتشف أكسير الخلود وجاء ليحكم سيطرته على العالم. لم يعد يشعر بوجوده، أما هو فلم يعد يشعر إلا به، أخذت عيناه ترحل مع يديه

وهما تمسكان تلك الشوكة فيحرث الماء بها؛ فتطفر الألوان متقافزة في سعادة خلف أسنانها، ثم يتركها تتقافز قليلا قبل أن يمسك مجموعة الفرش الدقيقة ويدور بها خالقا دوامات صغيرة أخذت تدور معها الألوان وكأنها تلعب لعبة الكراسي الموسيقية. وأخيرا انحنى على الماء.. في البداية تخيل أنه سيقبله أو سيهمس في أذنيه سرا يريد أن يكتمه إياه، إلا أنه لم يفعل هذا أو ذاك، بل نفخ..... وأخذ ينننننفخ..... ومع استمرار نفخه علت وجهه سكينة غريبة وقد أطبق جفنيه على بعضهما البعض، وبدا وكأن تلك النفخات لا تحمل فقط قطرات من الهواء لتلوين تلك الكائنات البديعة التي ترقد أمامه، بل كانت تحمل دفقات من روحه بثها ليبعث فيها الحياة. تركها لحظات تحيا حياتها الخاصة، فأخذ ينفصل الأحمر عن البني بينما اندمج الأزرق الغامق مع القرنفلي، واستطال البيج وتكور الأخضر وأخذ يدور حول نفسه في دوامات جعلته يتمحور حول ذاته، تشكلت أشكال الحياة البدائية كالأميبا وتراكبت أقواس من ألوان الطيف لتشكل عين ريش الطاووس. وفي لحظة بعينها حددها هو بعين خبيرة، قرر أن لحظة الميلاد قد حانت، وحينها حدث ما جعل قدميه ترتجفان ولم تعودا تقويان على حمله، ولم تعد عيناه ولا عقله ولا روحه ولا قلبه يقدرون على تحمل المزيد من المعجزات، فقد جاءت تلك المعجزة الأخرى لتدفعه دفعا إلى حافة الجنون، حيث مد يديه وحوط بهما قطعة بضة من الورق، أخذت تتلوي بين يديه بميوعة وهي تتثنى في كل اتجاه، ولكنه بيد خبيرة استطاع أن يرشدها إلى حوض الماء حيث أرقدها فيه. كان يعرفها جيدا، وكان يعرف كيف يروضها، علم مواضع الضغط فأخذ يضغط عليها بحزم وحكمة؛ وعرف أين وكيف يمسح، فأخذ يمسح على ظهرها برقة وحنو، كل هذا وهي تتلوي فوق الماء في دلال، وكل منهما يعرف ماذا يريد من صاحبه، فلا الماء يعلو فيطغى عليها، ولا تهبط هي فتغرق فيه، أعطاها ما يريد ونالت منه ما ترغب. وظل ذلك الحوار دائرا بين الثلاثة للحظات. وفي لحظة أخرى اختارها أيضا بعناية سحب الورقة من الماء ونشرها بين يديه وقد علت وجهه ما لا يمكن وصفه من تعبيرات، ثم علقها فوق الحبل أسفل أحد المشابك لتبدأ حياتها بين أخواتها. عندها لم يتمالك نفسه، وبيد مرتجفة وعيون زائغة أخذ يبحث عن الباب وعندما وجده بصعوبة فتحه وحاول الخروج وهو يودعه، تعثر لسانه في أفكاره فلم ينطق بكلمة، وتعثرت قدماه في خطواته فلم يتحرك قيد أنملة ..... وسقط جاثيا على ركبتيه.

لما عايز تروح فيصل، أيه نزلك محطة فيصل؟!

هناك العديد من الأخطاء الشائعة التي يرتكبها ركاب المترو، وهو بحكم خبرته في خط شبرا– المنيب يعلم هذه الأخطاء جيدا. فكثيرا ما ينسى أحد الركاب تذكرته أثناء الدخول ويتركها داخل الماكينة في محطة المغادرة، وفي أحيان أخرى ترى الراكب ينتظر خروج التذكرة من الماكينة في محطة الوصول. وتكون العاقبة هي دفع غرامة ثقيلة في حالة النسيان، أما في حالة الانتظار فالعاقبة هي تحمل تعليقات مستظرفة من بعض موظفي المترو أو بعض رواده ممن يتمتعون بخفة ظل سمجة. ومن ضمن الأخطاء الشائعة أيضا والتي يصادفها كثيرا هو قناعة بعض الركاب بأنهم ماداموا يريدون الوصول إلى شارع فيصل فعليهم النزول في محطة فيصل! وهذه القناعة تبلغ حدا من اليقين تجعل هؤلاء النفر من الركاب يخجلون من السؤال عن الطريق إلى فيصل معتقدين أن الرد الطبيعي سيكون:

- لو سمحت لو عايز أروح فيصل أنزل محطة أيه؟!
- أمممم أكيد يا سيدي هتنزل محطة فيصل هاوهاوهاوهاااا كفك على كده.

وكان يشعر بتفوق وسعادة غامرة عندما يتعثر في أحد هؤلاء النفر الذين يجهلون هذه القاعدة، فيبدأ في شرح المنطق المعقد الذي يحكم تلك المعضلة:

- شوف يا سيدي، لو عايز تروح فيصل هتنزل محطة جامعة القاهرة وتعدي الناحية الثانية، أوعي تعدي الناحية الأولانية ..... هاوهاوهاوهاااا ..... هتلاقي عربيات فيصل واقفة مستنياك. أما لو نزلت محطة فيصل هتلاقي هناك عربيات الملكة ومساكن فيصل.

ويظل يسهب للراكب المسكين في تفاصيل الطرق والكباري في المنطقة، في حين أنه لا يبغي سوى الوصول إلى فيصل وليس الإلتحاق بوظيفة سائق في تاكسي العاصمة. كان يشعر ببهجة شديدة كلما أخذ يشرح لأحد هؤلاء الركاب هذه المسألة المعقدة، ويتخيل أمامه إعلانات مدرسي المراكز التعليمية على شاكلة "سيبويه اللغة العربية: زغلول مرسي" و "نيوتن الفيزياء: حسني عبد الله" و"برامسيوم الأحياء: زكريا بكتريا" ويتخيل نفسه وقد سكب جردل من الطلاء الأبيض على كل هذه الأسماء وكتب باللون الأحمر وبإطار من اللون الأخضر وكأنه هالة نور "المرشد الداكن في الفرق بين فيصل والمساكن" وإلى جواره اسمه. ورغم خبرته هذه وتمكنه إلا أنه وقع في ذات الخطأ ذات صباح. كان في ميدان الجيزة يضم تحت إبطه مغلف بلاستيكي

يحوي بعض الأوراق، يطبق عليه بقوة وحنو خشية الفقدان والتلف. لم يكن السر وراء كل هذا العرق الذي أخذ يتصبب منه الحر الشديد فقط، بل كان أيضا هرولته لمحاولة اللحاق بموعده في عين شمس. كان يتجه إلى أقرب محطة مترو ويعلم أن هذا سيستغرق وقتا، كما يعلم من المرة الوحيدة التي ذهب فيها أن الوقت قد بدأ يداهمه بشدة؛ لذا عندما لمح ذلك الأتوبيس يمرق إلى جواره وقد لمح أن منتهاه هو عين شمس، لم يفكر كثيرا وأطلق العنان لساقيه للحاق به معتمدا على أن في هذا التوقيت سيكون الطريق غير مزدحم، وعندما لحق به تصارع مع باقي الركاب للصعود من الباب الخلفي، حيث التحمت الظهور بالجذوع، والأكواع بالذقون، والرؤوس بالآباط، في نسخة واقعية من فيلم الرعب الشهير للمخرج "جيمس كاميرون" "aliens". صعد إلى الأتوبيس وأخذ يناضل حتى احتل مكانا جيدا، وظل طوال الطريق ينظر في ساعته ويضم المغلف وداخله الأوراق إلى إبطه، ويتحسس كل فترة من الزمن حافظته ليتأكد من وجودها. طال الطريق بشدة واستطاع القلق التسلل والوصول إلى نفسه رغم ذلك الزحام الشديد؛ فنظر مرة أخرى في ساعته وضم المغلف وتحسس الحافظة، وناضل ليصل إلى الكمسري:

- هوه فاضل كتير على عين شمس؟
- عين شمس؟! بس الأتوبيس ده مش رايح عين شمس.
- إزاي؟ ده مكتوب عليه مساكن عين شمس.
- أيوه بس مساكن عين شمس مالهاش دعوة بعين شمس. في ناس كتير بتغلط الغلطة ديه، برضه عندنا في خط مترو شبرا-المنيب كتير بقابل ناس بيتلخبطوا ما بين فيصل ومساكن فيصل.
- (في سره) هوه اللي بنعمله في الناس هيطلع علينا ولا إيه؟
- أكيد حضرتك مستغرب لما مساكن عين شمس مش في عين شمس، أمال سكان عين شمس بيباتوا فين .... هاوهاوهاو ..... ما هو عموما العيب على الحكومة، أصلها ما بتصدق تلاقي اسم وتشبك فيه، عندك مثلا كوبري القبة، وحدايق القبة، وسراي القبة، "قبة" إيه ديه اللي عاملين عليها الباللو ده كله، ولما اتزنقوا سموا حمامات القبة. هاوهاوهاوهاااااو.... واخد بالك من اتزنقوا ديه؟

على الرغم من إنه كان يكره من يفسر نكتته مستجديا ضحك الزبون، إلا أنه لم يكن يحتاج للمزيد من المبررات كي يكرهه، لذا تغاضى عن هذا سائلا:

- طب اعمل إيه دلوقتي؟

أخذ يصف له الطريق إلى عين شمس، لكنه نظر في ساعته وقد أدرك أن أوان تصحيح مساره قد فات فنفخ:

- طب لو عيز أرجع الجيزة؟

أخذ يصف له طريق العودة إلى الجيزة، فهبط وعبر إلى الجهة الأخرى من الطريق، وتوقف ينتظر الأتوبيس. وبينما وقف منتظرا إياه أخذ يتخيل الكمسري وهو يحمل جردل الطلاء الأبيض، ويسكبه على وجهه؛ فنفخ بغيظ، وعندما وصل أتوبيس العودة قام ببطولة الجزء الثاني من "aliens ولكن هذه المرة لم يهتم بضم المغلف ولا تحسس الحافظة، فلم يعد يجدي الضم ولا التحسس.

ظلت تلطم خديها، وتخمش وجهها، وتبكي بكاء حارا وهي تجلس على الأريكة الموجودة خارج غرفة العمليات. حاول كل من ابنها وزوجها تهدأتها دون جدوى، بينما ظلت تطوح رأسها يمينا وشمالا وهي تردد عبارات غير واضحة المعالم. من بين التطويح واللطم والعديد والبكاء لمحتها تجلس قبالتها.

رغم ذلك الموقف الرهيب والمصيبة الكبرى التي ألمت بها، استرعت انتباهها. لم يكن السبب هو تلك النظرة التي ظلت ترمقها بها فحسب، وكذلك ليس بسبب التعبير الغريب الذي ارتسم على وجهها وفقط، بل كان السبب الرئيسي هو تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها وهي تديم النظر إليها. استرعت انتباهها لدرجة أنها توقفت قليلا عن الانتحاب، خفت حدة البكاء، التصق كفاها بخديها وقد توقفا عن اللطم. ظلت هكذا للحظات، لكن فجأة هبت من مقعدها وهرولت إلى الطبيب الذي خرج لتوه من غرفة العمليات. تعلقت بيديه وكأنها تتضرع اليه وهي تسأله:

- أخبارها أيه دلوقتي يا دكتور؟

بلا انفعالات أو مشاعر أجابها بصوت معدني عميق رتيب:

- الحقيقة الحالة خطيرة بس أحنا بنحاول، وربنا يوفقنا.

تركت يديه وإن ظلت عيونها معلقة به. حتى عندما انتحى بابنها، ظلت أنظارها معلقة بشبحه الذي طبع بقعة على عينيها بحجمه وهيئته ظلت تتردد بين اللونين الأبيض والأسود مع انطباق جفنيها وانفراجهما. حوطها زوجها بذراعيه، عندها استعادت إحساسها بما حولها وعاد إليها وعيها، فانخرطت في بكاء حار ونحيب لا ينقطع. شاركها زوجها البكاء والنحيب وهو يقودها إلى الأريكة مرة أخرى.

عندما جلست غرقت في تلك الابتسامة العجيبة التي تواجهها والتي يبدو أن لا أحد يلحظها سواها. استغرقتها تلك الابتسامة حتى أنها لم تنتبه إلى ذلك الحديث الدائر بين زوجها وابنها بشأن تقسيم المهام المنوطة بكل منهما في الوقت الحالي من تسديد رسوم المستشفي ومحضر الشرطة والشهود وغيرها. استغرقتها للدرجة التي لم تنتبه لانصرافهما خارجين من الطرقة المفضية إلى هذا البهو أمام غرفة العمليات.

للحظة أخطأت تلك الابتسامة. ظنتها ابتسامة شماتة، لكنها تبينت خطأها. اعتقدت للحظات أنها استهزاء، لكنها كانت مخطئة في هذا أيضا. عجيب أمرها. هي نفسها تعجبت من حالها. ابنتها ترقد في غرفة العمليات بين الحياة والموت، ومع ذلك تهتم بتلك المرأة وابتسامتها، بل لا تستفزها تلك الابتسامة. بالعكس شعرت بتلك الابتسامة تربت على قلبها المفطور وروحها الكسيرة فجبرت كسرها وضمدت جرحها. ظلت مصوبة ابتسامتها نحوها. لم تشعر أنها تتحداها، بل شعرت بها تتحد معها. تعجبت أيضا من جبهتها. كانت أول مرة ترى جبهة كهذه الجبهة فى أية امرأة. فعلى الرغم من عدم توانيها - هي من أدت فريضة الحج مرتين وسنة العمرة ما لا يحصى من المرات - في أداء الفروض لأوقاتها، وحرصها على النوافل وقيام الليل، لم تنبت لديها علامة صلاة كتلك التي نبتت في جبهة صاحبة الابتسامة. هل ينبت للسيدات علامة صلاة؟!

كمن هو خاضع للتنويم المغناطيسي، نهضت من مكانها واتجهت اليها. ارتمت إلى جوارها على الأريكة، بينما ظلت هي تصوب ابتسامتها إلى الفراغ حيث كانت تجلس منذ قليل. ظنتها تمثال دقيق لإحدى القديسات جلبوه إلى هذا المكان لتخفيف الآلام وليست انسانا من لحم ودم. قبل أن تنتهي لقرار بشأنها التفتت اليها ببطء وما تزال الابتسامة مرتسمة على وجهها. بصوت مختلط مضطرب غير مفهوم كصوت النائم أثناء معالجته لكابوس مزعج:

- بنتي عملت حادثة. فرحها الأسبوع الجاي. راحت تجيب فستان الفرح. كانت بتعدي الطريق، عربية مجنونة خبطتها وهربت.

انفجرت في البكاء وارتمت في أحضانها. حوطتها بذراعيها. دفنتها في صدرها. شعرت بدفء غريب. حضن لم تجربه من قبل. كان أشد احتواء من حضن زوجها الذي دامت عشرتهما لعشرات السنوات وكان الملجأ والملاذ لها في كل الشدائد. كان أحن من حضن ابنتها الراقدة الآن تخوض معركتها المصيرية. كان أكثر عطاء من كل هذه الأحضان مجتمعة بعشرات الأضعاف، إلا أنها شعرت وهي تغوص بين هذين الذراعين أنها تغوص في لحد مظلم الجنبات. تغوص في بحر من الأحزان. شعرت بموجة من الارتياح تجرف كل أحزانها في البداية، لكن أعقبتها موجات غريبة من شجن عجيب يجتاح روحها.

انتفضت من بين ذراعيها وهي تتوقع اختفاء الابتسامة بعد أن اعترتها موجات الحزن تلك. لكنها وجدتها في انتظارها. دون نقص أو زيادة. ظلت كما هي بالضبط وكأنها مرسومة أو مطبوعة على

الشفتين، بل بدا وكأنها منحوتة على صخر من الجرانيت، لكنه جرانيت حار القلب. انطلق السؤال من عقلها:

- أيه السر في الابتسامة ديه؟

لكن عندما وصل السؤال إلى شفتيها:

- ليكي حد هنا؟

مبتسمة كما هي:

- ياريت!

متعجبة دون استنكار:

معقول؟! بتتمنى تكوني مكاني؟!

كما هي:

هوه فيه أم بتتمني أن أي شر يصيب أولادها؟

أخيرا تجرأت وطاوعها لسانها، فسألتها:

- من ساعة ما أقعدت وانتي بتبص لي وبتبتسمى ...

لم تكمل العبارة وهي تراقب ما اعترى وجهها من تغيرات. ارتفعت الشفاه لأول مرة وكأنها وتر في قيثارة جذبته يد خفية ثم أفلتته فارتد متأرجحا بين الابتسام والبكاء. ارتد الوتر ليخرج الصون منغوما شجيا:

- اللي يشوف بلاوي الناس، تهون عليه بلوته.
- بتواسى نفسك بيا؟!
- باواسيكي بنفسى.

- أزاي؟ هوه في حاجة في الدنيا أكبر من أن الموت يحاول يخطف واحد من أولادك من بين أيديكي، في الوقت اللي أنت مستنيه فرحتك بيه، وإنتي كل اللي تملكيه هوه البكا ولطم الخدود؟!
- اللي أكبر من البكا هو إن عيونك تبلع دموعها والحلق يبقى طعمه صبر وعلقم. اللي أكبر من اللطم إن خدودك تشتاق ليه عشان تفش غلها، لكنها تنحرم منه، وتمسكي أيديكي بأيديكي الاتنين من الخوف. اللي أكبر من بكا الشفايف، هو لما شفايفك ضهرها ينحني، تضطري إنك تفرديها في ابتسامة عريضة. أكبر مصيبة في الدنيا كلها خوفك من الغدر. خوفك إن عيونك تغدر بيكي وتبكي، إن أيديكي تغدر بيكي وتلطم، إن شفايفك تغدر بيكى وتطاطى راسها. اللي أكبر من مصيبتك هو أنك تقضي نهارك تصلي وليلك تدعي وانتي بتتمني إن الموت يفتكر واحد من أولادك بدل ما تستني فرحتك بيه.

حدقت فيها وهي مذهولة غير مستوعبة لأية كلمة سمعتها منها، وقبل أن تنطق بتعليق أو سؤال، اندفعت الممرضة خارجة من غرفة العمليات فتقدمت نحوها بسرعة لتسألها عن الوضع، فابتسمت الممرضة ابتسامة مطمئنة:

- الحمد لله الوضع مستقر دلوقتي، وإن شاء الله هتكون أفضل وهنتعزم على فرحها قريب.

احتضنت الممرضة وقبلتها، وبعد أن انصرفت، استدارت إليها، فوجدت الأريكة خاوية، دارت بعينيها في أنحاء البهو فوجدتها اختفت. كادت تظن أنها كانت تحلم أو تهذي بسبب الصدمة، لكنها لمحتها تسير خارجة من الطرقة، مفرودة الظهر، مشدودة القامة، واثقة الخطوات، لكنها خطوات ثقيلة بطيئة.

بلا ظل

انتصب ظله في تلك العتمة المحيطة به ونهض من رقدته وتسلق كومة اللحم التي قامت من حوله بحرص خشية أن يبعث فيها الحياة من جديد. وعندما هبط من على السرير اتجه نحو الباب وفتحه ببطء ولكنه ما لبث أن واربه مرة أخرى عندما لمح ذلك الظل يخطو في الصالة، ولكن عندما توارى الظل في عتمة الحجرة المقابلة، فتح الباب مرة أخرى وطار على قدميه حتى فتح باب الشقة وخرج. دغدغه هواء الليل بخفة روحه المعتادة وأزاح عنه بعضا من رائحة دماء الرجولة المسفوحة التي تزكم أنفه وتعمي عينيه. عندما دبت قدماه على أرض الشارع وسمع لها دويا مع قلة عدد الزائرين وهدأة الليل أحس بذلك الإحساس الذي يراوده كل ليلة بإنه عملاق ضخم ترتج أرجاء المدينة مع دبيب خطواته. ابتسم ابتسامته الليلية، ثم انعطف مع انعطافة الشارع ليسير في الطريق الطويلة المؤدية إلى المقهى حيث ينتظره نبيل.

بالتأكيد يجلس نبيل يقلب عينيه بين المذيع والمذيعة وأحجار الدومينو في انتظار قدومه ليتجها إلى المخبأ السري. كانت تلك عادته أو عادتهما منذ سنوات مل من إحصائها؛ حيث ينتظره عند مقهى لبيب مع عبد الرحمن السواق ومحمد الحداد يتابعهما وهما يلعبان الدومينو دون أن يطلب أية مشاريب وعندما يصل هو، ينضم إليه وبعد قليل يغادران المقهى إلى وجهتهما السرية. وجدعنة لبيب والعشرة الطويلة التي بينهما وبينه لم تمنعه في بعض الأحيان من التعليق مازحا على هذا الوضع مرددا تلك الكلمات من الليلة الكبيرة:

- اللي هيطلب راح يقعد واللي ما يطلبش يبعد.

فيردد هو مبادلا إياه مزاحا بمزاح:

- يالا بنا نخرج يا بلبل شارع الترماي.

وكلما ضبط نبيل محدقا في الشاشة رغب في إخباره إنه يصدقه ولكنه كان يعانده فقط. فعندما رفض تصديق قصة نبيل بإن هذا المذيع اللامع الشهير كان:

- زميل قديم وكان بليد كمان ولولا مساعدتي له في أوقات السلم والحرب ماكنش نجح ولا وصل للي وصله ده كله.

لم يرفضه إلا ليجازيه على تكذيبه لقصته. فعندما حدث هذا الأمر آثره هو دونا عن باقي الناس ليطلعه على ذلك السر المدهش الذي أطار لبه. ففي أول مرة ذهب ليقدم أوراقه في إحدى مسابقات التعيين في القطاع الحكومي وعاد خائب الرجاء لاحظ عند عودته - وذلك كان في وقت الظهيرة - أن جسده لا يلقي أية ظلال على الأرض فأخذ يتلفت حوله بجزع، وعندما نظر إليه المارة كاد يسألهم عن ظله علهم يرونه وإن علة ما قد ألمت بعينيه تمنعه من رؤيته، إلا إنه خشي أن يعلق أحدهم:

- هو انت الراجل الذي فقد ظله ولا أيه؟ طب ما تبلغ البوليس أو تلف بعربية وتقول ظل تايه يا أولاد الحلال. هههههههع.

منعته تلك الضحكات التى رنت في عقله من أن يكلم أحدا، وطأطأ رأسه دون أن ينظر إلى الأرض خشية أن يرى الأرض الخالية من ظله. رفض نبيل وقتها تصديقه على الرغم من تأكيده له إن الأمر قد تكرر عدة مرات وتحديدا في تلك المرات التي كان يذهب فيها إلى مسابقات القطاع الحكومي تلك، والتي تعتمد علي الكوسة، والتي واظب على التقديم فيها بسبب شخط أبيه وتوسلات أمه، بل إن الأمر تكرر معه في تلك المرة الوحيدة التي خاطر فيها وقدم أوراقه لوظيفة من وظائف القطاع الخاص والتي تخلو من الكوسة. لم يخبر أحدا سوى نبيل بهذا السر فلم يكن يستطيع تحمل المزيد من موجات المد والانحسار، ولكن نبيل خيب ظنه ولم يصدقه هو أيضا. وصل إلى المقهى ولمح نبيل جالسا مع عبد الرحمن السواق ومحمد الحداد يتابع لعبهما دون أن يطلب أية مشاريب بينما أخذ يقلب عينيه بين المذيع والمذيعة وأحجار الدومينو.

عندما وصلا إلى مخبأهما السري وجداه شبه خاو على غير المعتاد حيث لم يكن فيه سوى شخصين أو أربعة ولم يطيلوا المكث ربما بسبب برودة الجو بضع لحظات وجاءت ٠٠٠٠٠٠ بمفردها هذه المرة. توقفت في بقعتها المعتادة ولكن كانت البقعة المجاورة لها خاوية على غير المعتاد. كان يعرفها كما كان يعرف الجميع فى المخبأ السري؛ فلكل منهم ظل مختلف عن الآخر. فعتمة المكان والمسافات التي تفصل الثنائيات عن بعضها البعض كانت تمنع من التعرف على الملامح، ولكن طرطشة الضوء التي تأتي من الجهة الأخرى للنيل والذي كان يفصلهم عن حي من أرقى أحياء القاهرة كانت ترسم ظلالا لكل من يقف في ذلك المكان الهادئ المعتم والذي عرفه الكثيرون باسم طريق العشاق، أما هما فكانا يطلقان عليه المخبأ السري. خبرته بهذا المكان وكثرة

الظلال التي شهدها جعلته خبيرا في فن الظلال لدرجة إنه قرر احتراف فن السلويت. كان يرى نفسه خبيرا فيه، فبينما كل الصور التي شاهدها للسلويت كانت تهتم بإبراز الملامح فقط أو حتى في أحسن الأحوال بعض الأوضاع الحركية، كان هو قادرا على معرفة المشاعر والطباع لكل الظلال، فعندما تنتفخ تلك الكرية الصغيرة عند مجمع الحاجبين ويعلو الفك وينضم الفم يعلم إن الظل غاضب، عندما تذوب تلك الكرية عند مفرق الحاجبين ويسقط الفك يعلم إن الظل مندهش، وعندما تميل زاوية رأس الظل إلى الخلف وتنفرج فتحة على هيئة رقم سبعة عند فم الظل يعلم إنه يضحك، أما عندما يميل الظل للأمام وتتهدل ظلال الشعر - إن كانت تستطيع التهدل – وتطبق الفرشاة العلوية على الفرشاة السفلية يشعر باليأس يغلف الظل، أما إذا ارتج الظل وتولدت منه ظلال من كريات صغيرة يعلم إنه يبكي. كان يعرف ملامح جميع الظلال التي تتواتر على المكان، ويعلم طباعها وعلاقاتها، وبسبب هذه المعرفة قرر أن يحول هذه الظلال إلى صور سلويت ولكنه توقف بعد عدة محاولات أولية؛ فقد واجهته موجات من المد والانحسار، حيث امتدت إليه نظرات أبيه وقد تقافزت في عينيه شياطين الغضب وهي تمسك شوكاتها الجهنمية، بينما انحسرت عنه نظرات أمه وقد جثت فيها ملائكة الرحمة مهيضة الجناح. لمح ظل الرأس ينظر في ظل اليد فعلم إنها تنظر في ساعتها، ورأى كريتين تبرزان من عند ظل الخد فعلم إنها تنفخ ضجرا، ومال رأس الظل للأمام وراح يهتز يمينا ويسارا فأخذت ملامحها تختفي وتعاود الظهور، فعرف كل شيء. لمح الكريتين الضخمتين اللتين تبرزان من عند صدر الظل ترتجان، وهاتان الكريتان كانتا الوحيدتين اللتين لا تملكان ظلا بل كانت ملامحهما واضحة جلية، حيث إن منحنياتهما جعلتهما تتلقيان ضوءا مباشرا من الجهة الأخرى؛ فكانتا تقدحان نارا بذلك اللون القمحي المتوهج فيلفحه اللهيب ويسيل منه العرق فتزكمه مرة أخرى رائحة دماء الرجولة المسفوحة، ولكن ذلك الظل الذي كان يقوم في تلك البقعة المجاورة لها كان يحول بين ظله وظلها. تحرك الظل ذو الكريات القمحية البراقة، فتبادل ظله وظل نبيل النظرات دون كلام. ابتعد الظل وتبعه الظلان الأخران، وفي لمح البصر اندمجت الظلال الثلاثة، وصارت ظلا واحدا، وأخذ شكل هذا الظل يتحول سريعا ويتخذ أشكالا عدة، وتحرك مختفيا في الكوبري القريب ..... حيث تختفي جميع الظلال.

خالى حسنين اللي في مصر

"أنا عايز أروح لخالي حسنين ف مصر"

ظل يصرخ بتلك العبارة في محطة مصر وقد التف حوله عدد من المسافرين والعاملين في المحطة وقد علت وجوههم جميعا الساخر منهم والمتعاطف - ابتسامة واسعة؛ حيث استطرف الجميع ذلك الرجل الريفي الوليد ذا القامة الفارعة الكتف العريضة، والذي يرتدي جلبابا بلديا ذا أكمام واسعة، ويضع على وجهه شاربا خفيفا كشعر رأس الوليد، ويتذمر كطفل صغير تائه؛ فجعلوا يستجوبونه:

- ثانية واحدة يا جدعان، اسمك أيه يا ابني؟

اسمي حسن زرزورة.

- هههههههي زرزورة ده اسم أبوك؟
- لع ده اسمي آني. أبويا اسمه منصور.
- وسموك زرزورة ليه يا زرزورة ؟
- أصلي مش ممكن حد يحصلني ولا يمسكني؛ علشان لما بجري بطير زي الزرازير.
- هعهعهعهعهع
- أيه اللي جابك مصر يا سي زرزورة ؟
- أصلي خالي حسنين واحشني وكنت عايز اشوفه وبالمرة اتفسح ف مصر.
- طب يا ابني انت جاي لوحدك ولا حد جاي معاك؟
- لع أني جاي لوحدي، ماحدش كان عايز يجي معاي. قلت لهم هاروح لواحدي فزعجولي وجالوا لي أجعد يا له يا عبيط أنت تروح فين، فأني اتغظت وجلت والله لاروح واتفسح عند خالي وارجع اغيظهم كلهم بالذات الواد صبري اللي بيجعد يغظني ويتلعج لي بلسانه علشان أبوه بسيبوه يروح يعوم أبو
- طب يا ابني أنت عارف خالك ساكن فين ف مصر؟
- أيوه ف بين السرايات.
- فين ف بين السرايات؟
- البيت بتاعه.
- كركركركر فين بجي البيت بتاعه ده؟

- ف بين السرايات.
- طب بيشتغل أيه وفين؟
- في المجمعات الاستهلاكية.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. يا أخوانا حد فيكم رايح بين السرايات؟
- أنا رايح هناك، بس هعمل أيه؟
- ينوبك ثواب يا ابني تاخده معاك يمكن تعتر يعرفه ولا حاجة.
- يا حج ما هو لو المتكلم مجنون المستمع عاقل، يعني هدور بيه هناك وأقول أنا عايز أروح لخاله حسنين اللي ف بين السرايات.
- هههههه والله يا ابني ما هو حاجة تقلب الدماغ، والواحد صعبان عليه الواد المسكين ده.
- طب بص يا أخ زرزورة، أنت بلدكم أيه؟
- المنيا.
- جاي منين من المنيا؟
- من حدا أبويا منصور.
- (وهو يضرب رأسه) يا نهار أبيييييض ..... أوعى تقول لي أبوك منصور اللي ف المنيا؟
- أيوه.

انفجر الجميع في الضحك، فقطب جبينه وكاد يبكي وحاول أن يتملص منهم، فأمسكوا به وهم يربتون على ظهره ويطيبون خاطره.

- يعني انت مش عارف انت منين من المنيا؟
- لأ عارف بس مش هاجولكم.
- ليه يا بني كده؟
- أصل لو عرفتوا هترجعوني بلدنا جبل ما اروح لخالي ويفسحني.
- لأ ما تخفش، بس قول.
- يا جماعة أنتو مغلبين نفسكم ليه أحنا نسلمه للشرطة و..... ألحق يا جدع الواد جري!
- أمسك يا دفعة الواد ده.
- حسبوا يا جدعان الواد هيتعور.

لحقه الجميع والتفوا حوله فزاد الزحام وقد ظنه الجميع لصا مقبوضا عليه، وقد تضاعف الزحام مع استمرار صراخه الذي لا ينقطع:

- سيبوني، ماليش دعوة أنا عايز اروح لخالي حسنين اللي ف مصر.
- ها يا عم إرتحت أدينا وصلناك لخالك حسنين اللي ف مصر.

*****

وقف "خاله حسنين اللي ف مصر" يحصي البضاعة المكومة أمامه في صناديقها، وقد أخذ يخط بعض الكلمات في ذلك الدفتر الذي يقبض عليه. وكاد أن يتكوم فوق تلك الصناديق هو الآخر عندما احتضنته هاتان الذراعان القويتان وقد فاجأه ذلك الصوت:

- أزيك يا خال، واحشتني جوي يا خال.

تضاعفت دهشته أضعافا مضاعفة عندما التفت فوجد حسن زرزورة يقف أمامه بشحمه ولحمه وأجنحته:

- إزيك ياله يا حسن، أنت جيت أمتى ومع مين؟

أجابه حسن بفخر ورقبته تتمايل يمينا ويسارا:

- جيت لوحدي.
- يخرب بيت ابوك، لوحدك إزاي ياله؟

إلتفت مستغربا عندما رنت تلك الضحكة التي أطلقها الحاج بيومي والذي كان يقف على باب المحل ولم يلحظ وجوده:

- إزيك يا عم بيومي! هوه أيه الحكاية؟
- أبدا يا سيدي أنا كنت بوصل بنتي وجوزها المحطة لقيت الناس ملمومة عليه، وهو على صرحة واحدة "عايز أروح لخالي حسنين اللي ف مصر"، طيبت خاطره وسايسته واحدة واحدة، فلما قال لي على الشغل والسكن واسمك بالكامل؛ قلت أكيد قريبك فجيبته، والحمد الله طلعت أنت، وإلا كانت هتبقى حوسه.

- بقى كده يا حسن، عموما شكرا يا حاج معلش تعبناك معانا.
- لا تعب ولا حاجة، سلام يا حسن أبقى تعالى عندنا البيت بقي.
- لا أنا هاروح عند خالي.
- هههههههه بقى كده ماشي يا حسن انا زعلان منك. السلام عليكم.
- تعالي يا سي حسن دا اولاد خالك هيفرحوا قوي لما يشوفوك، بس نتصل بالبلد نطمنهم الأول.

قضى حسن زرزورة أسبوعا من أجمل أسابيع حياته؛ حيث رأى بصحبة خاله عجائب الدنيا السبعة مثل حديقة الحيوان والبرج والمتحف الزراعي والأهرامات وغيرها، واستمتع باللعب مع أولاد خاله واستمتع كذلك بطبيخ زوجة خاله، وفي النهاية اصطحبه خاله إلى القرية. وقد ظل حسن زرزورة لأسابيع متتالية وشهور متباعدة يغيظ كل من يقابله، كما كان يخرج لسانه لصبري والذي لا تزيد أخطر مغامراته عن الاستحمام في الترعة الغربية. وظل حسن فخورا بنفسه؛ حيث استطاعت تلك الزرزورة - التي كانوا يظنونها عبيطة – الطيران والذهاب بمفردها إلى خالها حسنين اللي ف مصر.